

أَخْبَارُ الْخَوَارِجِ

مِنْ كِتَابِ

الْبُكَامِ

فِي اللَّفْتِ وَالْأَدَبِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ

تَأْلِيفِ

الإمام أبي العباس المبرّد

دار الفکر

أهداء 2005

أ.د. عباس محمد الحميد

جامعة الإسكندرية

اَخْبَارُ الْجَوَاهِرِ

مِنْ كِتَابٍ

الْكَامِلِ

فِي اللَّغَةِ وَالْأَدَبِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ

تَأَلَّفَ

الإمام أبي العباس المبرور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكامل

حدثنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز قال : حدثنا أبو عثمان سعيد بن جابر قال : حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأنخشي قراءة عليه قال : قرئ لي هذا الكتاب على أبي العباس محمد بن يزيد المبرّد :

الحمد لله حمداً كثيراً يبلغُ رضاه ، ويوجب مزيدَه ، ويجيرُ من سخطه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تؤدّي حقه ، وتُزلفُه عند ربه .

قال أبو العباس : هذا كتاب ألقناه يجمع ضرباً من الآداب ، ما بين كلام مشور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خُطبة شريفة ، ورسالة بليغة .

والنية أن تُفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مُستغلق ، وأن تشرح ما يعرضُ فيه من الإغراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يُرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً ، وبالله التوفيق والجول والقوة ، وإليه مفزعُنا في درك كل طَلِبة ، والتوفيق لما فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته ، وعقدِ رضاه ، وقولِ صادق يرفعه عمل صالح ، إنه على كل شيء قدير .

أخبار الخوارج

قال أبو العباس : ذكر أهل العلم من الصُّفَرِيَّة أن الخوارج لما عَزَمُوا على البَيْعة لعبدِ الله بن وهبِ الرَّاسِي من الأزدِ تَكْرَةً ذلك ، فأبَوْا مَنْ سِوَاهُ ، ولم يُريدوا غَيْرَهُ . فلما رأى ذلك منهم قال : يا قوم ! اسْتَيْتُوا الرَّأْيَ . أي دَعَوْهُ يَغْبُ . وكانت يقول : نعوذُ بالله من الرَّأْيِ الدَّيْرِيِّ .

قوله « اسْتَيْتُوا الرَّأْيَ » يقول : دَعَوْا رَأْيَكُمْ فَاتَّعَبْتُمْ عَلَيْهِ لِيَلْهُمُ ثُمَّ تَعَقَّبُوهُ ، يقال « بَيَّتَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا » إذا فَعَلَهُ لَيْلًا . وفي القرآن : (إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ) أي أَدَارُوا ذَلِكَ لَيْلًا بَيْنَهُمْ . وأنشد أبو عبيدة :

أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوا وَكَانُوا أَتَوْنِي بِأَمْرِ نَكْرٍ
لَأُنْكِحَ أَيْتَهُمْ مُنْذِرًا وَهَلْ يُنْكِحُ الْعَبْدَ حَرْءٌ لَحْرٌ

« والرأيُ الدَّيْرِيُّ » : الذي يَعْرِضُ مِنْ بَعْدِ وَقُوعِ الشَّيْءِ ، كما قال جرير :

وَلَا يَعْرِفُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصِيبَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدَبُّرًا
وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ ذَا رَأْيٍ وَفَهْمٍ ، وَلِسَانٍ وَشَجَاعَةٍ ، وَإِنَّمَا تَلَجُّوْا إِلَيْهِ وَخَلَعُوا مَعْدَانَ الْإِيَادِيِّ لِقَوْلِ مَعْدَانَ :

سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَايَعَ اللَّهَ شَارِيًا وَلَيْسَ عَلَى الْحِزْبِ الْمُقِيمِ سَلَامٌ
فَبَرِئْتُ مِنْهُ الصُّفَرِيَّةُ ، وَقَالُوا : خَالَفْتَ ، لَأَنْتَ بَرِئْتَ مِنَ الْقَعْدِ .
قال أبو العباس : والخوارجُ في جميع أصنافها تَبَرُّوا مِنَ الْكَاذِبِ ، وَمِنْ ذِي الْمَعْصِيَةِ الظَّاهِرَةِ .

وحدَّثْتُ : أنَّ واصلَ بنَ عطاءٍ أبا حذيفةَ أقبلَ في رُفقةٍ ، فأحسَّوا
 الحوارجَ ، فقال واصلٌ لأهلِ الرُفقةِ : إنَّ هذا ليس من شأنكم ، فاعتزلوا
 ودعوني وإيَّام ، وكانوا قد أشرَفوا على العَظَبِ ، فقالوا له : شأنك ،
 فخرجَ إليهم ، فقالوا : ما أنتَ وأصحابُكَ ؟ قال : مشرِّكونَ مُستَجِرونَ ،
 لیسْمَعوا كلامَ الله ، ويَعْرِفوا حُدُودَه ، فقالوا : قد أجَرناكم ! قال :
 فَعَلَّمونا ، فَجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجَعَلَ يقول : قد قبلتُ أنا ومَن معي ،
 قالوا : فامضوا مُصاحِبينَ ، فإنكم إخواننا ! قال : ليس ذلك لكم ، قال الله
 تبارك وتعالى : (وإنَّ أحدَ منَ المُشركينَ استجارَكَ فأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
 كلامَ اللهِ ثمَّ أَبْلِغْهُ مَآمَنَهُ) فأبْلِغونا مَآمَننا ، فنظر بعضهم إلى بعضٍ ،
 ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا بأجمعهم حتى بَلَّغُوا المَآمَنَ .

وَذَكَرَ أَهْلُ العِلْمِ مِن غَيْرِ وَجْهِ : أنَّ عَلِيًّا رضي الله تعالى عنه لما وَجَّهَ
 إليهم عبدَ الله بنَ عباسٍ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ لِيُناظِرَهم ، قال لهم : ما الذي
 نَقِمْتُمْ على أميرِ المؤمنين ؟ قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حَكَمَ
 في دينِ الله خَرَجَ من الإيمانِ ، فَلْيَتَّبِعْ بعدَ إقرارِهِ بالكُفْرِ نَعْدُ لَهُ !
 فقال ابنُ عباسٍ لا ينبغي لمؤمنٍ لم يَشُبْ إِيْمَانُهُ شَكٌّ أَنْ يَقِرَّ على نفسه
 بالكُفْرِ . قالوا : إنه قد حَكَمَ ، قال إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أمرنا بالتحكيم
 في قتلِ صَيدٍ ، فقال عزَّ وجلَّ : (بِحُكْمٍ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)
 فكيف في إمامةٍ قد أَشْكَلتْ على المسلمين ؟ فقالوا : إنه قد حَكِمَ عليه فلم
 يَرْضَ . فقال : إنَّ الحُكُومَةَ كالإمامةِ ، ومتى فسَقَ الإمامُ وَجَبَتْ
 معصيته ، وكذلك الحكمان ، لما خالفا نُبذَتْ أَقْاويلُهما . فقال بعضهم
 لبعضٍ : لا تجعلوا احتِجاجَ قريشٍ حُجَّةً عليكم ! فإنَّ هذا من القومِ الذين
 قال الله عز وجل فيهم : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) وقال عز وجل :
 (وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لَدًّا) .

★ ★ ★

والشيء يذكرك بالشيء ، وجاء في الحديث : أن رجلاً أعرابياً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني أصبت ظلياً وأنا محرم ؟ فالتفت عمر إلى عبد الرحمن بن عوف ، فقال : قل ، فقال عبد الرحمن : يهدي شاة ، فقال عمر : أهد شاة ، فقال الأعرابي : والله ما درى أمير المؤمنين ما فيها حتى استفتى غيره ! فغفقه عمر رضوان الله عليه بالدرة ، وقال : أتقتل في الحرم وتغيب الفتيا ؟ ! إن الله عز وجل قال : (يحكمكم به ذوا عدل منكم) فانا عمر بن الخطاب ، وهذا عبد الرحمن بن عوف .

قال أبو العباس : وفي هذا الحديث ضرب من الفقه : منها ماذكروا أن عبد الرحمن بن عوف قال أولاً ، ليكون قول الإمام حكماً قاطعاً . ومنها أنه رأى أن الشاة مثل الظبية ، كما قال الله عز وجل : (فجزاء مثل ما قتل من النعم) . وأنه لم يسأله : أخطأ قتله أم عنداً ؟ وجعل الأمرين واحداً . ومنها أنه لم يسأله : أقتلت صيداً قبله وأنت محرم ؟ لأن قوماً يقولون : إذا أصاب ثانية لم يحكم عليه ، ولكننا نقول له : اذهب فأتق الله ، لقول الله تبارك وتعالى : (ومن عاد فينتقم الله منه) .

قال أبو العباس : من طريف أخبار الخوارج قول قطري بن الفجاءة المازني لأبي خالد القناني ، وكان من قعد الخوارج :

وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
وأنت مقيم بين لص وجاحد

أبا خالد يا نغير فلست بخالد
أترعم أن الخارجي على الهدى

فكتب إليه أبو خالد :

بنائي ، إنهم من الضعاف
وأن يشر بن رنقا بعد صاف
فتنبو العين عن كرم عجاج
وفي الرحمن للضعفاء كاف
وصار الحي بعدك في اختلاف

لقد زادت الحياة إلي حباً
أحاذر أن يرين الفقر بعدي
وأن يعر ين إن كسي الجواري
ولولا ذاك قد سوئت مهري
أبانا من لنا إن غبت عنا

وهذا خلاف ما قال عمران بن حطان ، أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، وقد كانت رأس القعد من الصقرية وخطيبهم وشاعرهم ، قال لما قتل أبو بلال ، وهو مرداس بن أدية ، وهي جدته ، وأبوه حدير ، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، قال عمران بن حطان :

لقد زاد الحياة إليّ بغضاً	وحباً للخروج أبو بلال
أحاذرُ أن أموت، على فراشي	وأرجو الموت تحت ذوى العوالي
ولو أنني علمتُ بأنّ تحفي	كحتف أبي بلال لم أبال
فمن بك همّة الدنيا فإني	لها والله رب البيت قالي

وفيه يقول :

يا عين بكّي لمرداس ومصرعه	يارب مرداس اجعلني كمرداس
تركنتي هائماً أبكي لمرزنتي	في منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذوقها شارب عجلأ	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

★ ★ ★

قال أبو العباس : وكان من حديث عمران بن حطان فيما حدثني العباس ابن الفرّج الرّياشي عن محمد بن سلام : أنه لما أطرده الحجاج كان ينتقل في القبائل ، فكان إذا نزل في حي انتسب نسباً يقرب منه ، ففي ذلك يقول :

نزلنا في بني سعد بن زيد	وفي عك وعامر عوثنان
وفي لحم وفي أدد بن عمرو	وفي بكر وحى بني الغدان

ثم خرج حتى نزل عند روح بن زنباع الجذامي ، وكانت روح يقري الأضياف ، وكان ماسماً لعبد الملك بن مروان أثراً عنده ، فانتسب

له من الأزد . وفي غير هذا الحديث : أن عبد الملك ذكر روحاً فقال :
 من أعطي مثل ما أعطي أبو زرعة ؟ أعطي فقه أهل الحجاز ، ودعاة أهل العراق ،
 وطاعة أهل الشام . ورجع الحديث : وكان روح بن زنباع لا يسمع
 شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك فيسأل عنه عمران بن حطان
 إلا عرفه وزاد فيه ، فذكر ذلك لعبد الملك ، فقال إن لي جاراً من الأزد
 ما أسمع من أمير المؤمنين خبيراً ولا شعراً إلا عرفته وزاد فيه ، فقال :
 خبرني ببعض أخباره ، فخبّره وأنشده ، فقال : إن اللغة عدّانية ،
 وإنّي لأحسبه عمران بن حطان ، حتى تذاكروا ليته قول عمران بن حطان
 يمدح ابن ملجم لعنه الله :

ياضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً
 إنّي لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزاناً
 قلبه الفقيه الطبري فقال :

ياضربة من شقي ما أراد بها إلا ليهدم من ذي العرش بنيانا
 إنّي لأذكره يوماً فالعنه لها والعن عمران بن حطانا
 قال محمد بن أحمد الطيب يردّ على عمران بن حطان :

ياضربة من غدور صار ضاربها أشقى البرية عند الله إنسانا
 إذا تفكرت فيه ظلت العنه والعن الكلب عمران بن حطانا

فلم يدور عبد الملك لمن هو ، فرجع روح إلى عمران بن حطان ، فسأله
 عنه ، فقال عمران : هذا يقوله عمران بن حطان يمدح به عبد الرحمن بن
 ملجم قاتل علي بن أبي طالب ، فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره ، فقال
 له عبد الملك : ضيفك عمران بن حطان ، اذهب فجنّني به ، فرجع إليه ،
 فقال : إن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك ، قال له عمران : قد أردت أن
 أسالك ذلك فاستحييت منك ، فامض فإني بالأثر ! فرجع روح إلى عبد

الملك فأخبره ، فقال له عبدُ الملك : أما إنَّكَ ستُرجعُ فلا تجدُهُ ! فرجع وقد ارتحل عمرانُ ، وخلف رُقعةً فيها :

ياروحُ كم من أخِي مئوى تزلتُ به
حتى إذا خفتهُ فارقتُ منزله
قد كنتُ جارك حوْلاً ما تروءُني
حتى أردتُ بي العُظمى فأدركني
فاعذِرْ أخاك ابنَ زنباعٍ فإنَّ له
يوماً يمانٍ إذا لقيتُ ذا بينٍ
لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغيةً
لكنَّ أبتُ لي آياتُ مطهرةً

قد ظنَّ ظنَّكَ من لحمٍ وغسانٍ
من بعدِ ما قيل عمرانُ بنُ حطَّانٍ
فيه روائعُ من إنسٍ ومن جانٍ
ما أدرك الناسُ من خوف ابنِ مروانٍ
في النائباتِ مُخطوباً ذاتَ ألوانٍ
وإث لقيتُ معدَّياتٍ فعدتاني
كنتُ المُقدَّم في سرِّي وإعلاني
عند الولاية في طه وعمرانٍ

ثم ارتحل حتى تزل بزُفر بن الحُرث الكلبيُّ ، أحد بني عمرو بن كلابٍ ، فانتسب له أوزاعياً ، وكان عمرانُ يُطيلُ الصلاة ، وكان غلمانٌ من بني عامرٍ يضمكون منه ، فأناه رجلٌ يوماً يمتنُ رآه عند روح بن زنباعٍ فلم عليه ، فدعاه زُفرٌ فقال : من هذا ! فقال : رجلٌ من الازد رأيتُهُ ضيفاً لروح بن زنباعٍ ، فقال له زُفرٌ : يا هذا ؟ أزدياً مرةً وأوزاعياً مرةً ؟ ! إن كنت خائفاً آمنَّاك ، وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رُقعةً فيها :

إن التي أصبحتُ يعني بها زُفرٌ أعبتُ عيائاً على روح بن زنباعٍ
قال أبو العباس : أنشدني الرِّياشيُّ . أعيا عياها على روح بن زنباعٍ ،
وأنكره كما أنكرناه ، لأنه قصر المدود ، وذلك في الشعر جائزٌ ، ولا يجوز مدُّ المقصور .

ما زال يسألني حوْلاً لأخبره والناسُ من بين مخدوعٍ وخداعٍ
حتى إذا انقطعتُ عني وسائلُهُ كفَّ السؤال ولم يُولع بيهلاعي

فاكفّف كما كفّ عني إنني رجلٌ
واكفّف لسانك عن لومي ومسألتي
أما الصلاة فإني غيرٌ تاركها
أكرم بروح بن زتباع وأمرته
جاورتهم سنة فيما أمر به
فاعمل فإنك منعي بواحدة
إما صميم وإما فقعة القاع
ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع
كلّ امرئٍ للذي يُعنى به ساعي
قومٌ دعا أولهم للعلّي داعي
عرضي صبيحٌ ونومي غيرٌ تهجاع
حسب اللبيب بهذا الشيب من ناعي

ثم ارتحل حتى أتى عمان ، فوجدهم يُعظّمون أمر أبي بلال ويُظهرونه ،
فاظهر أمره فيهم ، فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى أهل عمان ، فارتحل
عمران هارباً ، حتى أتى قوماً من الأزد فلم يزل فيهم حتى مات . وفي نزوله
بهم يقول :

نزلنا بحمد الله في خير منزل
نزلنا بقوم يجمع الله شملهم
من الأزد إن الأزد أكرمُ امرأةٍ
فاصبحت فيهم آمناً لا كمعشر
أم الحيّ قحطان ؟ فتلکم سفاهة
وما منها إلا يسرٌ بنسبة
فنحن بنو الإسلام والله واحد
نسرٌ بما فيه من الأئس والحقير
وليس لهم عودٌ سوى المجد يُعتمر
يماناً طابوا إذا نسب البشر
أتوني فقالوا من ربيعة أو مضر
كما قال لي روحٌ وصاحبهُ زفر
تقرّبني منه وإن كان ذا نفر
وأولى عباد الله بالله من شكر

قوله « باروحكم من أخي مئوي نزلت به » قد مر تفسيره ، يقال « هذا
أبو مئوي » ولأنّ « هذه أم مئوي » ومنزل الضيافة وما أشبهها « المئوي »
وكذلك قال المفسرون في قول الله عز وجل (أكرمي مئواً) أي إضافة
ويقال من هذا « نوى مئوي مئواً » كقولك « مضى بخي مضياً » ، ويقال
« نواة » و « مضاء » كما قال الشاه :

طال التواء على رسم يميؤود أودى وكلّ جديد مرة مودي

وقوله « فيه روائع من إنس ومن جان » الواحدة « رائعة » يقال « راعني يروعي روعاً » أي : أفرعني . قال الله تعالى ذكره : (فلما ذهب عن إبراهيم (الروح) ويكون « الرائع » الجميل يقال : جمال رائع » ، يكون ذلك في الرجل والفرس وغيرهما ، وأحسب الأصل فيها واحداً : أنه يُفرط حتى يروع ، كما قال الله جل ثناؤه : (يكادُ سنا بريقه ينبعثُ بالأبصار) للأفراط في ضيائه ، و « الرائع » ميموزٌ ، وكذلك كل فعلٍ من الثلاثة بما عينه واو أو ياء إذا كانت معتلة ساكنة ، تقول « قال يقول » و « باع يبيع » و « خاف يخاف » و « هاب يهاب » يعتلُ اسمُ الفاعل فيهمزُ موضع العين نحو « قاتل » و « بائع » و « خائف » و « هائب » . فإن صحَّت العين في الفعل صحَّت في اسم الفاعل ، نحو « عور الرجل فهو عاور » و « صيد فهو صايد » ، و « الصيد » داءٌ يأخذُ في الرأس والعينين والشؤون وإنما صحَّت في « عور » و « حول » و « صيد » لأنه منقولٌ من « احول » و « اعور » . وقد أحكمنا تفسير هذا في الكتاب المقتضب .

وقوله :

« يوماً يمان إذا لاقيتُ ذا يمن وإن لقيتُ معدياً فعدتاني »

يُريد : أنا يوماً يمان ، ولولا أن الشعر لا يصلح بالنصب لكان النصبُ جائزاً ، على معنى أتقل يوماً كذا ويوماً كذا ، والرفع حسنٌ جميلٌ . وهذا الشعرُ يُنشدُ نصاً .

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظةً وفي الحرب أمثال النساءِ العواركِ
« العوارك » من الحوائض . وكذلك قوله :

أفي الولائم أولاداً لواحدةٍ وفي المحافل أولاداً لعلات
قال « العلات » سُميت لأن الواحدة « تُعل » بعد صاحبها ، وهو من « العلل » وهو الشربُ الثاني ، أي يختلفون ويتحولون في هذه الحالات . ومن

كلام العرب: أئيميا مرةً وقيسياً أخرى؟ وكذلك إن لم تستفهم وأخبرت قلت
ئيميا مرةً علم الله وقيسياً أخرى . أي : تستقل . ومن ثم قال له زفر بن
الحارث : أزدياً مرةً وأوزاعياً أخرى ؟ والرفع على « أنت » جيد بالغ .

وقوله : « لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغية » يكون على وجهين : لنفس
طاغية ، والآخر للمذكر ، وزاد الماء للتوكيد والمبالغة ، كما يقال : رجل
راويةً وعلامةً ونسابةً ، وكلاهما وجه . ويقال : جاءت طاغية الرثوم ، يراد
الجماعة الطاغية ، كما قال رسول الله ﷺ : « تقتلك الفئة الباغية » .

وقوله « عند الولاية » إذا فتحت فهو مصدر « الولي » وفي القرآن
المجيد : (ما لكم من ولایتهم من شيء) . والولاية مكسورة نحو السياسة
والرياضة والإيالة ، وهي الولاية ، وأصله من الإصلاح ، يقال « آله يؤوله »
أولاً ، إذا أصلحه . قال عمر بن الخطاب : قد ألنا وإبل علينا . تأويل ذلك
قد ولينا وولي علينا . وهذه كلمة جامعة ، يقول : قد ولينا فعلنا ما يصلح
الوالي ، ووئي علينا فعلنا ما يصلح الرعية .

وقوله « حتى إذا ما انتقضت مني وسائله » الوسائل ، واحدها وسيلة ،
وهي : الذريعة والسبب . يقال : قد توسلت إلى فلان ، قال رؤبة بن
العجاج :

والناس إن فصلتهم فصائلا كل إلينا يتغني الوسائلا

وقوله : « ولم يولع بإعلامي » أي : يافزاعي وترويعي . والمطلع من
الجبين عند ملاقة الأقران ، يقال : نعوذ بالله من اللمع . ويقال : رجل هلوع
إذا كان لا يصبر على خير ولا شر ، حتى يفعل في كل واحد منها غير الحق ،
قال الله وهو أصدق القائلين : (إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر
جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً) . وقال الشاعر :

ولي قلب سقيم ليس يصحو ونفس ما تفيق من الهلاع

وقوله . « إمّا صميمٌ وإمّا فقعةٌ القاع » ، « الصميمُ » ، الخالصُ من كل شيءٍ ، يقال : فلانٌ من صميم قومه ، أي : من خالصهم . وقال جريرٌ لهشام ابن عبد الملك :

وتنزلُ من أُميّةٍ حيثُ تَلقى شؤونُ الرأسِ يجتمعُ الصميمُ
وقوله « إمّا فقعةٌ القاع » ، يقال لمن لا أصل له : هو فقعةٌ بقاع ، وذلك لأن الفقعة لا عروق لها ولا أغصان ، والفقعة الكمأة البيضاء ، ويقال : حمامٌ فقّيعٌ : لبياضه . ومن ذا قولُ الشاعر :

قومٌ إذا نسبوا يكونُ أبومُ عند المناسبِ فقعةٌ في قرقر
وقال بعضُ القرشيين :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فلا تجعلُ خليلك من تميم
بلوتُ صميمهم والعبد منهم فما أدنى العبيد من الصميم

وقوله « نسرٌ بما فيه من الأنس والحقر » ، فأصل « الحقر » ، شدّةُ الحياة يقال « امرأةٌ خفرةٌ » ، إذا كانت مستورةً لاستحيائها ، قال ابنُ عمير الثقفى :

تضوّعُ سكّابطنُ نعان أن مَثُ به زينبٌ في نسوةٍ خفّرات
وقوله « إنّ الأزد أكرمُ أمرةٍ » ، يقولُ : عصابةٌ وقيلةٌ ، ويقالُ للرجل : من أيّ أمرةٍ أنت ؟ وأصلُ هذا من الاجتماع ، يقال للقتب « مأسورٌ » ، وقد مضى تفسيره .

وينشدُ « بمانيةٌ قرّبوا إذا نسب البشرُ » ، يريدُ « قرّبوا » . وهذا بجائزٌ في كلِّ شيءٍ مضمومٍ أو مكسورٍ إذا لم يكن من حركات الإعراب ، تقولُ في الأسماء في « فخذٍ » ، « فخذتُ » ، وفي « عضدٍ » ، « عضدتُ » . وتقولُ في الأفعال « كرمُ عبدُ الله » ، أي كرمُ ، و « قد علم الله » ، أي علم الله . قال الأخطلُ :

فإن أهجهُ يضجرُ كما ضجرُ بازلُ من الإبلِ ديوتُ صفحتاهُ وكاهلهُ

وقال آخر : .

عجبت لمولود وليس له أبٌ وذى ولدٍ لم يلدَه أبوان

ولا يجوزُ في « ضرب » ولا في « جل » ، أن يسكن ، لحقة الفتحة .

وقوله « أتوتني فقالوا من ربيعة أو مضر » يقول : أمن ربيعة أم من مضر ؟ ويجوزُ في الشعر حذفُ ألف الاستفهام ، لأن « أم » التي جاءت بعدها تدلُّ عليها . قال ابنُ أبي ربيعة :

لعمرك ما أدري وإن كنتُ دارياً بسبعٍ رمين الجمر ام بثلاث
يريدُ : أبسبع ؟ وقال التميمي :

لعمرك ما أدري وإن كنتُ دارياً شعيثُ بن سهمٍ أم شعيثُ بن منقر

الروايةُ على وجهين : أحدهما « من ربيعة أم مضر أم الحي فحطان » يريدُ : إذا أم ذا ؟ والأصلحُ في الرواية « من ربيعة أو مضر » ، أم الحي فحطان ، لأن ربيعة أخو مضر ، فأراد من أحد هذين أم الحي فحطان ، لأنه إذا قال : أريدُ عندك أم عمرو ؟ فاجوابُ : نعم ، أو لا ، لأن أحد هذين عندك ، ومعنى الأول : أيها عندك ؟ ويروى - وحدثني المازني - : أن صفية بنت عبد المطلب ألقاها رجلاً ، فقال لها : ابن الزبير ؟ قالت : وما تريدُ إليه ؟ قال : أريدُ أن أباطشه ! فقالت : ها هو ذاك ، فصار إلى الزبير فباطشه . فغلبه الزبيرُ ، فمرَّ بها مفلولاً ، فقالت صفية :

كيف رأيت زيرا . ألقطاً أو قرأ . أم قرشياً صقرا

لم تشكك بين الأقط والتمر فتقول أيها هو ؟ ولكنها أرادت : رأيتُه طعاماً أم قرشياً صقراً ؟ أي أحد هذين رأيتُه أم صقراً ؟ ولو قالت : ألقطاً أم قرأ : كان محالاً على هذا الوجه .

وقوله : « وما منها إلا يسرٌ بنسبة » معناه : وما منها واحدٌ ، فحذف لعلم المخاطب . قال الله جلَّ اسمه : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به

قبل موته (أي : وإن أحدٌ . ومعنى « إن » ، معنى « ما » ، قال الشاعر :
وما الدهرُ إلا ثلاثٌ فمنها أموتُ وأخرى أبتغي العيش أكدهُ
يريدُ : فمنها تارة .

وقوله :

« فنحنُ بنو الإسلامِ واللهُ واحدٌ وأولى عباد الله بالله من شكر »
يقول : انقطعت الولايةُ إلا ولاية الإسلام ، لأن ولاية الإسلام قد قاربت
بين الغرباء . وقال الله عز وجل : (إنما المؤمنون إخوةٌ) . وقال عز وجل
فباعد به بين القرابة : (إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غيرٌ صالح) وقال
نهارُ بن توسة الشكري :

دعي القوم ينصرُ مدعيه ليُلحقه بندي الحسب الصميم
أي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبسٍ أو تميم

* * *

ويقالُ فيما يُروى من الأخبار : إن أول من حكم عروة بن أديّة ، وأديّة
جدة له جاهليةٌ ، وهو عروة بن حدير ، أحدُ بني ربيعة بن حنظلة . وقال
قومٌ : بل أول من حكم رجل يقال له سعيدٌ من بني محارب بن خصفة بن
قيس بن عيلان بن مضر ولم يختلفوا في إجماعهم على عبد الله بن وهب الراسبي ،
وأنه امتنع عليهم ، وأومأ إلى غيره ، فلم يقنعوا إلا به ، فكان إمام القوم ،
وكان يُوصفُ بالرأي .

قال أبو العباس : فأما أولُ سيفٍ سلّ من سيوف الخوارج فسيفُ عروة
ابن أديّة ، وذلك : أنه أقبلَ على الأشعثِ فقال : ما هذه الدّنيّةُ يا أشعثُ ؟
وما هذا التحكيمُ : أشرطُ أوثقُ من شرطِ الله عز وجل ؟ ! ثم شَرَّ عليه
السيفَ والأشعثُ مولٍ ، فضربَ به عجزَ البغلة ، فشَبَّتِ البغلةُ فنقرت اليابانيةُ ،
وكانوا جلّ أصحابِ عليّ صلواتُ الله عليه ، فلما رأى ذلك الأحنفُ قصد

هو وجارية بن قدامة ومسعود بن فدي بن أعبد وشيث بن ربيعي الرباحي ،
إلى الأشعث ، فسألوه الصّقع ، ففعل .

وكان عروة بن أدية نجا من حرب النهروان ، فلم يزلّ باقياً مدةً من
خلافة معاوية ، ثم أتى به زيادٌ ومعه مولى له ، فسأله عن أبي بكرٍ وعمر ،
فقال خيراً ، ثم سأله فقال : ما تقولُ في أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأبي
ترابٍ عليّ بن أبي طالبٍ ؟ فتولى عثمان ست سنين من خلافتِهِ ، ثم شهد عليه
بالكفر ! وفعل في أمر عليّ مثل ذلك إلى أن حكم ، ثم شهد عليه بالكفر !
ثم سأله عن معاوية ؟ فسبّه سبّاً قبيحاً ! ثم سأله عن نفسه ؟ فقال : أولئك
لزنيةٍ وآخرُك لدعوةٍ ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك ! ثم أمر به فضربت عنقه ،
ثم دعا مولاه فقال : صف لي أموره ؟ فقال : أأطنبُ أم أختصرُ ؟ فقال :
بل اختصر ، فقال : ما أتيت به بطعامٍ بهارٍ قطُّ ، ولا فرشتُ له فراشاً
بليلٍ قطُّ .

وكان سببُ تسميتهم الحرورية : أن علياً لما ناظرهم بعد مناظرة ابن
عباس رحمه الله إياهم ، فكان بما قال لهم : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما
رفعوا المصاحف قلتُ لكم أن هذه مكيدةٌ ووهنٌ ، وأنهم لو قصدوا إلى
حكم المصاحف لم يأتوني ثم سألتني التحكيم ، أفعلتمُ أنه كان منكم أحدٌ أكره
لذلك مني ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فهل علمتمُ أنكم استكروهموني على
ذلك حتى أجبتم إليهم ، فاشتروا أن يحكمها نافذةٌ ما حكما بحكم الله عزّ
وجلّ ، فإن خالفاه فأنا واثم من ذلك برآء ، أو أنتم تعلمون أن حكم الله
لا يعدوني ؟ قالوا : اللهم نعم - وفيهم في ذلك الوقت ابنُ الكواء ، وهذا
من قبل أن يذبحوا عبد الله بن خبابٍ ، فلما ذبحوه بكسروا في الفرقة الثالثة -
فقالوا : حكمت في دين الله برأينا ، ونحن مقرون بأننا قد كفرنا ، ونحن
ثائبون ! فأقررنا بمثل ما أقررنا به وتبّ ، تنهض معك إلى الشام !! فقال :
أما تعلمون أن الله جل ثناؤه قد أمر بالتحكيم في شقاق بين رجلٍ وامرأة ، فقال تبارك
وتعالى : (فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) وفي صيدٍ أصيب في الحرم ،

كَأَرْبِ يَسَاوِي رُبْعَ دِينَارٍ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ (بِحَكْمٍ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)
 فَقَالُوا : إِنَّ عَمْرَأَ لَمَّا أَبِي عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ فِي كِتَابِكَ « هَذَا مَا كَتَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ
 عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ » مَحَوْتَ اسْمَكَ مِنَ الْخِلَافَةِ ، وَكَتَبْتَ « عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ »
 فَقَالَ لَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسْوَةٌ ، حَيْثُ أَبِي عَلَيْهِ سَهْلُ بْنُ
 عَمْرٍو أَنْ يَكْتُبَ « هَذَا كِتَابُ كَتَبَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَسَهْلُ بْنُ عَمْرٍو » فَقَالَ :
 لَوْ أَقَرَرْنَا بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا خَالَفْنَاكَ ، وَلَكِنِّي أَقَدَّمْتُكَ لِفَضْلِكَ ، ثُمَّ قَالَ :
 اكْتُبْ « مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » فَقَالَ لِي : يَا عَلِيُّ ، امْحُ « رَسُولُ اللَّهِ »
 فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا تَسْخِرْ نَفْسِي بِمِحْوِ اسْمِكَ مِنَ النَّبُوَّةِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ : قَفْنِي عَلَيْهِ ، فَحَاجَهُ يَدُهُ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ اكْتُبْ « مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ »
 ثُمَّ تَبَسَّمَ إِلَيَّ فَقَالَ ، يَا عَلِيُّ : أَمَا إِنَّكَ سَتَسَامُ مِثْلَهَا فَتُعْطِي فَرَجَعَ مَعَهُ مِنْهُمْ
 أَلْفَانِ مِنْ حُرُورَاءَ ، وَقَدْ كَانُوا تَجَمَّعُوا بِهَا ، فَقَالَ لَهُمْ عَلِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ :
 مَا نَسَمَيْكُمْ ؟ ثُمَّ قَالَ : أَنْتُمْ الْحُرُورِيَّةُ ، لِاجْتِمَاعِكُمْ بِحُرُورَاءَ .

وَالنَّسَبُ إِلَى مِثْلِ « حُرُورَاءَ » « حُرُورَاوِيٌّ » فَاعْلَمْ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ
 فِي آخِرِهِ أَلْفُ التَّانِيَةِ الْمَمْدُودَةِ ، وَلَكِنَّهُ نَسَبَ إِلَى الْبَلَدِ بِحَذْفِ الزَّوَائِدِ ، فَقِيلَ
 « الْحُرُورِيُّ » .



وَقَالَ الصَّلْتَانُ الْعَبْدِيُّ فِي كَلِمَةٍ لَهُ :

أَرَى أُمَّةً شَهَرَتْ سِيفَهَا	وَقَدْ زِيدَ فِي سَوْطِهَا الْأَصْبَحِي
بِنَجْدِيَّةٍ وَحُرُورِيَّةٍ	وَأَزْرَقَ يَدْعُو إِلَى أَزْرِقِي
فَلْتَنَا أَنَا الْمَسْلُومُ	عَلَى دِينِ صَدِّيقِنَا وَالنَّبِيِّ

وَفِي هَذَا الشَّعْرِ مِمَّا يَسْتَحْسَنُ قَوْلُهُ :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرِ	مُرُورُ اللَّيَالِي وَكُرُّ الْعَشِيِّ
إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا	أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتَى

نروحُ ونغدو لحاجاتنا وحاجةُ من عاش لاتنقضي
تموتُ مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

قوله « وقد زيد في سوطها الأصبحي » ، فإنه تسمى هذه السياطُ التي يعاقبُ بها السلطانُ « الأصبحية » وتنسبُ إلى ذي أصبح الحميري ، وكان ملكاً من ملوك حمير ، وهو أولُ من اتخذها ، وهو جدُّ مالك بن أنس الفقيه رضي الله عنه .

« والتجديّة » تنسبُ إلى نجدة بن عويمر ، وهو عامرُ الحنفي ، وكان رأساً ذا مقالةٍ منفردةٍ من مقالات الخوارج ، وقد بقي من أهلها قومٌ كثيرٌ . وكان نجدةٌ يصلي بمكة بمجذاء عبد الله بن الزبير في جمعه في كل جمعة ، وعبد الله يطلبُ الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرم . قال الراعي مخاطباً عبد الملك :

إني حلفتُ على يمينٍ برةٍ لا أكذبُ اليوم الخليفة قبيلاً
ما إن أتيتُ أبا خيبٍ وافداً يوماً أريد بيديتي تبديلاً
ولا أتيتُ نجدة بن عويمر أبغي الهدى فيزيديني تضليلاً
من نعمة الرحمن لا من حياتي إني أعدُّ له عليّ فضولاً

وفي هذه القصيدة :

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه بالاصبحية قائماً مغلولاً

قوله « وأزرق يدعو إلى أزرق » يريدُ من كان من أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي ، وكان نافعٌ شجاعاً مقدّماً في فقه الخوارج ، وله ولعبد الله بن عباس مسائل كثيرة ، وسنذكر جملة منها في هذا الكتاب إن شاء الله .

وقوله « على دين صدّيقنا والنبي » فالعربُ تفعلُ هذا ، وهو في الواو جائزٌ ، أن تبدأ بالشيء ، وغيرهُ المقدمُ . قال الله عز اسمه : (هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ) وقال : (يامعشر الجن والإنس) وقال : (واسجدوا وارثكمي مع الراكعين) وقال حسّانُ بن ثابتٍ :
بهاينُ منهم جعفرٌ وابنُ أمّه عليٌّ ومنهم أحمدُ المتغيّرُ

يعنى : بني هاشم . ومن كلام العرب ربيعةٌ ومضرٌ وقيسٌ وخندفٌ وسليمٌ وعامرٌ . وأصحابُ نافع بن الأزرق هم ذوو الحَدِّ والجدِّ ، وهم الذين أحاطوا بالبصرة حتى ترحل أكثر أهلها منها ، وكان الباقون على التَّرحُّل ، فقلد المهلبُ حربهم ، فهزمهم إلى الفرات ، ثم هزمهم إلى الأهواز ، ثم أخرجهم عنها إلى فارس ، ثم أخرجهم إلى كرمان . وفي ذلك يقول شاعرٌ منهم في هذه الحرب التي صاحبها صاحبُ الزنج بالبصرة ، يرثي البلد ، ويذكر المنقبة التي كانت لهم . قال الأخفش : أنشدني يزيدُ المهلبُ لنفسه :

سقى الله مصرأ خف أهله من مصر
ولو كنت فيه إذ أبيح حربه
أبيح فلم أملك له غير عيرة
ونحن رددنا أهلها إذ ترحلوا
ومن يخش أطراف المنايا فإنا
فإن كربه الموت عذب مذاقه
وما رزق الانسان مثل منية
وفي هذا الشعر يقول :

ليشكر بنو العباس نعمى تجددت
لقد جنبتم أسرة حسدتكم
وقد نغصتهم جولة بعد جولة

وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

ألا طرقت من أهل بية طارقة
تيت وأرض السوس بيني وبينها
إذا نحن شئنا صادقنا عصابة

وكان مقدارُ من أصاب عليَّ صلوات الله عليه منهم بالنهروان ألفين وثمان مائة ، في أصح الأقاويل ، وكان عددهم ستة آلاف ، وكان منهم بالكوفة

زُهاءُ الفين من مُيسرُ أمره ولم يشهر الحرب ، فخرج منهم رجلٌ بعد أن قال عليٌّ رضوان الله عليه : ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خُبَّابٍ ، فقالوا : كلُّنا قتلهُ وشريك في دمه ! ثم حمل منهم رجلٌ على صفِّ عليٍّ ، وقد قال عليٌّ : لا تبدؤوهم بقتالٍ ، فقتل من أصحاب عليٍّ ثلاثة وهو يقولُ : أقتلهم ولا أرى عليًّا ولو بدا أوجرتُهُ الخطيًّا

فخرج إليه عليٌّ صلوات الله عليه فقتله ، فلما خالطه السيفُ قال : حبذا الروححةُ إلى الجنة ، فقال عبد الله بنٌ وهبٍ : ما أذري إلى الجنة أم إلى النار ؟ فقال رجلٌ من بني سعدٍ : إنما حضرتُ اغتاراً بهذا ، وأراه قد شك!! فانخزل بجماعةٍ من أصحابه ، ومال ألفٌ إلى ناحية أبي أيوب الأنصاري ، وكان رحمة الله على ميمنة عليٍّ ، وجعل الناسُ يتسلطون، وقد قال عليٌّ ، وقيل له : إنهم يريدون الجسر ، فقال : لن يبلغوا النُظفة ، وجعل الناسُ يقولون له في ذلك ، حتى كادوا يشكُّون ، ثم قالوا : قد رجعوا بأمر المؤمنين ، فقال : والله ما كذبتُ ولا كذبتُ ، ثم خرج إليهم في أصحابه ، وقد قال لهم : إنه والله ما يُقتلُ منكم عشرةٌ ، ولا يُفْلِتُ منهم عشرةٌ ، فقتل من أصحابه تسعة ، وأفلت منهم ثمانية .

* * *

قال أبو العباس: وقيل: أولُ من حكم ولفظ بالحكومة ولم يُشدَّ بها رجلٌ من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرَّةٍ ، من بني صريمٍ ، يقال له الحجاجُ بنُ عبد الله ، ويُعرفُ بالبُرك ، وهو الذي ضرب معاوية على التبرِّ ، فإنه لما سمع بذكر الحكمين قال : أبحكمُ في دين الله ؟ لاحكم الله ! فسمعه سامعٌ فقال : طعن والله فأنقذ .

وأولُ من حكم بين الصفتين رجلٌ من بني يشكر بن بكر بن وائلٍ ، فإنه كان في أصحاب عليٍّ ، فحمل على رجلٍ منهم فقتله غيلةً ، ثم مرق بين

الصفين فحكم ، وحمل على أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع الى ناحية عليّ صلوات الله عليه ، فحمل على رجل منهم ، فخرج إليه رجل من همدان فقتله ، فقال شاعر همدان :

ما كان أغنى الشكري عن التي تصلى بها جثراً من النار حاميا
غداة يُنادي والرماحُ توشه خلعتُ علياً بادياً ومُعاويا
وجاء في الحديث ، ان علياً رضي الله عنه كُليّ بحضرته : (قل هل
تنبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين خلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون
أنهم مُحسنون صنعا) فقال عليّ : أهل حروراء منهم

وروي عن عليّ صلوات الله عليه : انه خرج في غداة يُوقظُ الناس للصلاة
في المسجد ، فمرّ بجماعةٍ تتحدث ، ، فلمّ وسلموا عليه ، فقال وقبض على
لحيته : ظننتُ أن فيكم أشقاها ، الذي يخضب هذه من هذه . وأوماً بيده إلى
هاتمةٍ ولحيته .

ومن شعر عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين الذي لا اختلاف فيه أنه قاله ،
وأنه كان يُردّده : أنهم لما ساموه أن يُقرّ بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى
الشام ، فقال : أبعدُ صحبة رسول الله ﷺ والتقّه في الدين أرجع كافراً ؟ :
يا شاهد الله عليّ فاشهد أنّي على دين النبي أحمد
من شك في الله فإنني مهتدي

ويروى : أنّي توليت وليّ أحمد

ويروى : « أن رجلاً أسود شديداً بياض الثياب وقف على رسول الله ﷺ
وهو يقسم غنائم خيبر ، ولم تكن إلا لمن شهد الحديبية فأقبل ذلك الأسود على
رسول الله ﷺ ، فقال : ما عدت منذُ اليوم ! فغضب رسول الله ﷺ حتى
رؤي الغضب في وجهه . فقال عمر بن الخطاب : ألا أقتله يا رسول الله ؟ فقال
رسول الله : إنه سيكون لهذا ولأصحابه نبال » .

وفي حديث آخر : « أن رسول الله ﷺ قال له ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ » ثم قال لأبي بكر : اقتله ، فمضى ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ! رأيته راكعاً ، ثم قال لعمر : اقتله ، فمضى ثم رجع ، فقال يا رسول الله ! رأيته ساجداً ، ثم قال لعلي : اقتله ، فمضى ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ! لم أره ، فقال رسول الله : لو قتل هذا ما اختلف اثنان في دين الله .

قال أبو العباس : وحدثني إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة في إسناده ذكره : « أن علياً رضي الله عنه وجهه إلى رسول الله ﷺ بنحبه من اليمن ، فقسمها أرباعاً ، فأعطى ربعاً للأقرع بن حابس المجاشعي ، وربعاً لزبد الحيل الطائي ، وربعاً لعينة بن حصن الفزاري ، وربعاً لعلقمة بن علاثة الكلبي فقام إليه رجل مضطرب الخلق ، غائر العينين ، ثاقب الجبهة ، فقال له : لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله !! فغضب رسول الله ﷺ حتى تورد خداه ، ثم قال : أيامني الله عز وجل على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ فقام إليه عمر فقال : ألا أقتله يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : انه سيكون من ضئضئ هذا قوم يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ، تنظر في النصل فلا ترى شيئاً ، وتنظر في الرصاص فلا ترى شيئاً ، وتتأذى في الفوق . »

قوله ﷺ « من ضئضئ هذا » أي : من جنس هذا . يقال : فلان ضئضئ من ضئضئ صدق ، ومن محمد صدق ، وفي مركب صدق . وقال جرير للحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، وهو ابن عم الحجاج ، وكان عاملاً على البصرة :

أقبلن من ثهلان أو وادي خيم على قلاصير مثل خيطان السلم
إذا قطعن علماً بدا علم حتى أنجناها إلى باب الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم في ضئضئ المجد وبجوح الكرم
ويقال « مرق السهم من الرمية » إذا نفذ منها وأكثر ما يكون ذلك ان

لا يعلق به من دمها شيء ، وأقطع ما يكون السيف إذا سبق الدم . قال امرؤ القيس بن عابس الكندي :

وقد أختلس الضرب ة لا يدمى لها نصلي

فأما ما وضعه الأصمعي في كتاب الاختيار فعلى غلط وضع . وذكر الأصمعي أن الشعر لإسحق بن سويد الفقيه ، وهو لأعرابي لا يعرف المقالات التي يميل إليها أهل الأهواء ، أنشد الأصمعي :

برئت من الخوارج لت منهم من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا علياً يردئون السلام على السحاب
ولكني أحبُّ بكلِّ قلبي وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصدِّيق حباً به أرجو غداً حسن الثواب

فإن قوله « من الغزال منهم » يعني واصل بن عطاء ، وكان يكنى أبا حذيفة ، وكان معتزلياً ، ولم يكن غزالياً ، ولكنه كان يلقب بذلك ، لأنه كان يلزم الغزاليين ، ليعرف المتعنفات من النساء ، فيجعل صدقه لمن ، وكان طويل العنق . ويروى عن عمر بن عبيد ، أنه نظر إليه من قبل أن يكلمه ، فقال : لا يفلح هذا ما دامت عليه هذه العنق !

وقال بشار بن برد يهجو واصل بن عطاء :

ماذا منيت بغزالٍ له عتقٌ كنيقتك الدوَّ إن ولي وإن مثلاً
عتق الزرافة ما بالي وبالكم تكفرون رجلاً أكفروا رجلاً
ويروى ، لا بل كأنه لا يشك فيه : إن بشاراً كان يتعصب للنار على الأرض ، ويصوب رأي إبليس - لعنه الله - في امتناعه من السجود لآدم عليه السلام ، ويروى له :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

فهذا ما يرويه المتكلمون .

وقته أمير المؤمنين المهدي على الإلحاد . وقد روى قوم أن كبة فتشت فلم يصب فيها شيء مما كان يرعى به ، وأصيب له كتاب فيه : إني أردت هجاء آل سليمان بن علي ، فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكت منهم إلا إني قلت :

دينار آل سليمان ودرهمهم
كبابليين حفا بالعقاريت
لا يربحان ولا يربح نوالهما
كما سمعت بهاروت وماروت

وحدثني المازني قال : قال رجل لبشار : أتا كل اللحم وهو مبين لديانتك ؟ يذهب به إلى أنه ثوي ! قال : فقال بشار : ليسوا يذرون أن هذا اللحم يدفع عني شر هذه الظلمة .

وكان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثة في الرء ، فكان يخلص كلامه من الرء ، ولا يظن بذاك ، لاقتداره وسهولة ألفاظه . ففي ذلك يقول شاعر من المعتزلة ، يدحه بإطالته الخطب واجتنابه الرء ، على كثرة ترددها في الكلام ، حتى كأنها ليست فيه :

علم يبدال الحروف وقامع
لكل خطيب يغلب الحق باطله
وقال آخر :

ويجعل البر قحاً في تصرفه
وخالف الرء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطراً والقول يعجله
فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

ومما يحكى عنه قوله ، وذكر بشاراً : أما لهذا الأعمى المكتني بأبي معاذ من يقتله ؟! أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعث إليه من يعج بطنه على مضجعه ، ثم لا يكون الاسدوسياً أو عقلياً .

فقال « هذا الأعمى » ولم يقل بشاراً ، ولا ابن يرد ، ولا الضرير وقال « من أخلاق الغالية » ولم يقل المغيرة ، ولا المنصورية . وقال « لبعثنا إليه » ولم يقل لأرسلت إليه . وقال « على مضجعه » ولم يقل على فراشه

ولا مرقده . وقال « يعج » ولم يقل يقر . وذكر « بني عقيل » لأن
بشاراً كان يتوالى إليهم . وذكر « بني سدوس » لأنه كان نازلاً فيهم .

واجتاب الحرف شديداً .

قال : ولما سقطت ثيابا عبد الملك بن مروان في الطست قال : والله لولا
الخطبة والتساء ما حلفت بها .

قال : وخطب الجمعي ، وكان متزوع إحدى الثنيتين ، وكانت بصفر
إذا تكلم ، فأجاد الخطبة ، وكانت لنكاح ، فرد عليه زيد بن علي بن الحسين
كلاماً جيداً ، إلا أنه فضله بتمكث الحروف وحسن مخارج الكلام ، فقال عبد
الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر يذكر ذلك .

صحت مخارجها وتم حروفها فله بذاك مزية لا تنكر

« المزية » الفضية .

وأما قوله « وابن باب » فإنه ، عمرو بن عبيد بن باب ، وكان موثقاً
بني العدوية ، من بني مالك بن حنظلة ، فهذان معتزليان ، وليسا من الخوارج ،
ولكن قصد إسحق بن سويد إلى أهل البدع والأهواء ، إلا تراه ذكر الرافضة
معها ، فقال :

ومن قوم إذا ذكروا علياً أشاروا بالسلام على السحاب

ويروي : يرددون السلام على السحاب

★ ★ ★

ثم نرجع إلى ذكر الخوارج .

قال أبو العباس : فلما قتل علي بن أبي طالب أهل النهروان ، وكان بالكوفة
زهاء ألفين من الخوارج ، ممن لم يخرج مع عبد الله بن وهب ، وقوم ممن
استأمن إلى أبي أيوب الأنصاري : فتجمعوا وأمرؤا عليهم رجلاً من طيهم ،

فوجه إليهم عليّ صلوات الله عليه رجلاً ، وهم بالتخيلة ، فدعاهم ورقق بهم ، فأبوا ، فعادهم فأبوا ، فقتلوا جميعاً . فخرجت طائفة منهم نحو مكة ، فوجه معاوية من يقيم للناس حجّهم ، فتأوشه هؤلاء الخوارج ، فبلغ ذلك معاوية فوجه بسر بن أرطاة ، أحد بني عامر بن لؤي ، فتوافقوا وتراضوا بعد الحرب بأن يصلّي بالناس رجل من بني شيبة ، لثلاث يقاتل الناس الحجّ ، فلما انقضى نظرت الخوارج في أمرها ، فقالوا : إن علياً ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناهما لعاد الأمر إلى حقّه ! وقال رجل من أشجع : والله ما عمرؤ دونها وإنه لأصل هذا الفساد . فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنه الله عليه : أنا أقتل علياً ، فقالوا : وكيف لك به ؟ قال : أغتاله ، قال الحجاج بن عبد الله الصريمي ، وهو البرك : وأنا أقتل معاوية . وقال زاذويه مولى بني العنبر بن عمرو بن عويم : وأنا أقتل عمرأ . فاجتمع رأيهم على أن يكون قتلهم في ليلة واحدة ، فجمعوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان ، فخرج كل واحد منهم إلى ناحية ، فأتى ابن ملجم الكوفة ، فأخفى نفسه وتزوج امرأة يقال لها قطام بنت علقمة من قيم الرّباب ، وكانت ترى رأي الخوارج ، والأحاديث تختلف ، وإنما يؤثر صحيحها ، ويروى في بعض الأحاديث أنها قالت : لا أقتع منك إلا بصدّق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد وأمة ، وأن تقتل علياً ! فقال لها : لك ما سألت ، فكيف لي به ؟ قالت : تروم ذلك غيلة ، فإنّ مهلت أرحمت الناس من شرّ ، وأمت مع أهلك ، وإنّ أصبت مرّت إلى الجنة ونعيم لا يزول ! فأنعم لها بذلك . وفي ذلك يقول :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب عليّ بالحسام المصم

فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ولاقتك إلهادون فتك ابن ملجم

قال أبو العباس : وقد ذكروا أن القاصد إلى معاوية يزيد بن ملجم والقاصد إلى عمرو وآخر من بني ملجم ، وأن أباهم نهم ، فلما عصوه قال : استعدّوا للموت ، وأن أمهم حضّتهم على ذلك . والخبر الصحيح ما ذكرت لك أول مرة .

فأقام ابن ملجم ، فيقال : أن امرأته قطام لامته ، وقالت : ألا تخفي لما
قصدتَ له ؟ لشد ما أحيت أهلك ! قال : إني قد وعدت صاحبي
وقتاً بعينه . وكنت هنالك رجلاً من أشجع ، يقال له شبيب ، فواطأه
عبد الرحمن .

ويروى : أن الأشعث نظر إلى عبد الرحمن متقلداً سيفاً في بني كندة ،
فقال : يا عبد الرحمن ، أرني سيفك ، فأراه إياه ، فرأى سيفاً حديداً ، فقال :
ما تقلدك هذا السيف وليس بأوان حرب ؟ فقال : إني أردت أن أنحر به
جزور القرية ! فركب الأشعث بغلته وأتى علياً صلوات الله عليه فخبّره ، وقال
له : قد عرفت بسالة ابن ملجم وقتكه فقال عليّ : ماقتلني بعد !!

ويروى : أن علياً رضوان الله عليه كان يخاطب مرةً ويذكر أصحابه ، وابن
ملجم تلقاء المنبر ، فسمع وهو يقول : والله لأريحنهم منك ! فلما انصرف عليّ
صلوات الله عليه إلى بيته أتى به ملبياً ، فأشرف عليهم ، فقال : ما تريدون ؟
فخبّروه بما سمعوا ، فقال : ماقتلني بعد . فظنوا أنه

ويروى : أن علياً كان يتمثل إذا رآه بيت عمرو بن معدي كرب في
قيس بن مكشوح المرادي ، والمكشوح هيرة ، وإنما سمي بذلك لأنه ضرب
على كسحه :

أريد حباه ويريد قتلي عذيرك من خليك من مراد

فيتنفي من ذلك ، حتى أكثر عليه ، فقال له المرادي : إن قضي شيء كان .
فقيل لعليّ : كأنك قد عرفت وعرفت ما يريد بك ، أفلا تقتله ؟ فقال : كيف
أقتل قاتلي ؟ !

فلما كان ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان ، خرج ابن ملجم وشبيب
الأشجعيّ ، فاعتورا الباب الذي يدخل منه عليّ رضي الله عنه ، وكانت عليّ
يخرج مغسلاً ، ويوقظ الناس للصلاة ، فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيب

فأخطاه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلته ، فقال علي :
 قرئت ورب الكعبة ، شأنكم بالرجل . فيروى عن بعض من كان بالمسجد من
 الأنصار قال : سمعت كلمة علي ، ورأيت بريق السيف . فأما ابن ملجم
 فعمل على الناس بسيفه فأفرجوا له ، وتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد
 المطلب بقطيفة ، فرمى بها عليه ، واحتمله فضرب به الأرض ، وكان المغيرة
 أيداً ، فقعده على صدره . وأما شبيب فانتزع السيف منه وجل من حضرموت ،
 وصرعه وقعده على صدره . وكثر الناس ، فجعلوا يصيحون : عليكم صاحب
 السيف ، فخاف الحضرمي أن يكبوا عليه ولا يسمعوا عذره ، فرمى بالسيف ،
 وانسل شبيب بين الناس . فدخل ابن ملجم على علي رضي الله عنه ، فأمر
 فيه ، فاختلف الناس في جوابه ، فقال علي : إن أغش فالأمر إلي ، وإن
 أصب فالأمر لكم ، فإن أثرت أن تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تعفوا أقرب
 للتقوى . وقال قوم : بل قال : وإن أصبت فاضربوه ضربة في مقتل .
 فأقام علي يومين ، فسمع ابن ملجم الرنة من الدار ، فقال له من حضره .
 أي عدو الله : إنه لا بأس على أمير المؤمنين ، فقال : أعل من تبكي أم كلثوم ؟
 أعل ؟ أما والله لقد اشتريت سيفي بألف درهم ، وما زلت أعرضه ، فما يعيه
 أحد إلا أصلحت ذلك العيب ، ولقد أسقته السم حتى لفظه ، ولقد ضربته
 ضربة لو قسمت على من بالشرق لأنت عليهم . ومات علي صلوات الله ورضوانه
 عليه ورحمته في آخر اليوم الثالث ، فدعاه الحسن رضي الله عنه ، فقال : إن
 لك عندي سرّاً ! فقال الحسن رضوان الله عليه : أتدرون ما يريد ؟ يريد أن
 يقرب من وجهي فيعض أذني فيقطعها ، فقال : أما والله لو أمكنتني منها
 لاقتلعتها من أصلها ! فقال الحسن : كلا والله ، لأضربنك ضربة تؤدبك إلى
 النار ، فقال : لو علمت أن هذا في يديك ما اتخذت إلماً غيرك ، فقال عبد الله
 ابن جعفر : يا أبا محمد ، ادفعه إلي أشف نفسي منه . فاختلفوا في قتله ، فقال
 قوم : أحمى له ميلين وكعله بها ، فجعل يقول : إنك يا ابن أخي لتكحل
 عمك بملولين مضاضين ، وقال قوم : بل قطع يديه ورجليه ، وهو في ذلك

يذكر الله عز وجل ، ثم حمد إلى لسانه ، فشق ذلك عليه ، فقبل له : لم
تجزع من قطع يديك ورجليك ونراك قد جزعت من قطع لسانك ؟ فقال : نعم ،
أحببت أن لا يزال في بذكر الله وطباً ، ثم قتله .

ويروى : أن علياً رضي الله عنه أتى بآب ملجم وقيل له إننا قد سمعنا من
هذا كلاماً فلا نأمن قتله لك ؟ فقال : ما أصنع به ؟ ثم قال عليّ رضوان
الله عليه :

أشدّ حيازيمك للموت فإن الموت لا يقيك
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك
والشعر إنما يصح بأن تحذف « أشدّ » فتقول :
حيازيمك للموت فإن الموت لا يقيك

ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما عليه المعنى ، ولا يعتدون به في الوزن ،
ويحذفون من الوزن ، علماً بأن المخاطب يعلم ما يزيدونه ، فهو إذا قال « حيازيمك
للموت » فقد أضمر « أشدّ » فأظهره ، ولم يعتد به . وقال : وحدثني أبو
عثمان المازني قال : فصحاء العرب ينشدون كثيراً :

لسعد بن الضباب إذا غدا أحب إلينا منك فافرس حمراً
وإنما الشعر : لعمرى لسعد بن الضباب إذا غدا

• • •

وأما الحجاج بن عبد الله الصريمي - وهو البرك - ، فإنه ضرب معاوية
مصلباً فأصاب ما كتمه ، وكان معاوية عظيم الأوزاك ، فقطع منه عرقاً يقال
أنه عرق الشكاح ، فلم يولد لمعاوية بعد ذلك ولد ، فلما أخذ قال : الأمان
والبشارة ، قتل عليّ في هذه الصبيحة ، فاستوفني به حتى جاء الخبر ، فقطع
معاوية يده ورجله ، فأقام بالبصرة ، فبلغ زبداً أنه قد ولد له ، فقال : أولد
له وأمير المؤمنين لا يولد له ، فقتله . هذا أحد الخبرين .

ويروى : أن معاوية قطع يديه ورجليه ، وأمر باتخاذ المقصورة ، فقبل
لابن عباس بعد ذلك : ما تأويل المقصورة ؟ فقال : يخافون أن
يمظهم الناس .

وأما زاذويه : فإنه أُرصد لعمره ، واشتكى عمرو بطنه ، فلم يخرج للصلاة ،
 وخارج إلى الصلاة خارجة ، وهو رجلٌ من بني سَهْم بن عمرو بن هِصْصِ ،
 رَهْط عمرو بن العاص ، فضربه زاذويه فقتله ، فلما دخل به على عمرو فرآهم
 مخاطبونه بالإمرة قال : أو ما قُلتَ عمراً ؟ قيل : لا ، إنما قُلتَ خارجة ،
 فقال : أردتَ عمراً والله أراد خارجة .

* * *

وقال أبو زيد الطائي يروي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه :
 إن الكرام على ما كان من خلقٍ رَهْط امرئٍ خارِه للدين مختار
 طبٌ بصيرٌ بأضغان الرجال ولم يعدلٌ بحبر رسول الله أخبار
 وقطرة قطرت إذ حان موعدُها وكلُّ شيءٍ له وقتٌ ومقدار
 حتى تنصّلها في مسجدٍ طهرٍ على إمامٍ هدى إن معشرٌ جاروا
 حمتٌ ليدخل جنّات أبو حسنٍ وأوجبتٌ بعده للقاتل النار
 قوله « خارِه » إنما هو : اختاره ، وهو « فعله » و « اختاره » « افعله »
 كما تقول : قدر عليه واقدّر عليه .

وقوله « بصيرٌ بأضغان الرجال » ، فهي أمرارها ونخبأتها . قال الله تعالى :
 (فيحتملكم تبخلوا ويخريج أضغانكم) . و « الحبر » ، العالم . ويروى ابن عليّاً
 رضوان الله عليه مر يهودي يسأل مسلماً عن شيءٍ من أمر الدين ، فقال له عليٌّ :
 اسألني ودع الرجل ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! أنت حبرٌ ، أي : عالمٌ ،
 قال عليٌّ : أن تسأل عالماً أجدي لك .

وقوله « حتى تنصّلها » يريد : استخرجها .
 وقوله « حمت » معناه قدرت .

قال الكميّ :

والوصيُّ الذي آمال التَّجْوِبَ يئُ به عرشُ أُمّةٍ لانهدام

قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه حكما لا كفار الحكام
الإمام الزكي والفارس المعز لم تحت العجاج غير الكهام
راعياً كان منجاً ففقدنا وفقد السيم هلك السوام

قوله « الوصي » ، فهذا شيء كانوا يقولونه ويكثرُونَ فيه . قال ابن
قيس الرقيات :

نحن منّا النبيُّ أحمد والصدِّيق منّا التَّقِيُّ والحكماء
وعليُّ وجعفرُ ذو الجناحَيْنِ ن هناك الوصيُّ والشهداء
وقال كثيرٌ لما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية في خمسة عشر
رجلاً من أهله في سجن عارم :

متخبرٌ من لا قيت أنك عائدٌ بل العائد المحبوس في سجن عارم
وصيُّ النبيِّ المصطفى وابن عمِّه وفكّك أعناق وقاضي مغارم
أراد : ابن وصيِّ النبيِّ ، والعرب تقيم المضاف إليه في هذا الباب مقام
المضاف ، كما قال الآخر :

صَبَّعن من كاظمة الحص الحرب يحملن عباس بن عبد المطلب
يريد : ابن عباس رضي الله عنه ، وقال الفرزدق لسلیمان بن عبد الملك :
ورثم ثياب المجد فهي لبوسكم عن ابن مناف عبد شمس وهاشم
يريد : ابني عبد مناف .

وقال أبو الأسود :

أحبُّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصياً
أحبهم لحبِّ الله حتى أجيء إذا بعثت على هويّاً
هوئى أعطته منذ استدارت رعى الإسلام لم يعدل سويّاً

« السَّوِيُّ » ، و« السَّوَاء » الذي قد سوى الله خلقه ، لا زمالة به ولا
داء . وفي القرآن : (بشراً سويّاً) . وتقول : ساويت ذاك بهذا الأمر ،

أي : جعلته مثلاً له .

يقول الأزدلون بنو قشير طوال الدهر ما تنسى علياً
بنو عسم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إلينا
فإن يك حبهم رشداً أصبه وليس بخطيء إن كان غيياً
ويروى « ولست » وكان بنو قشير عثمانيّة ، وكان أبو الأسود نازلاً
فيهم ، فكانوا يرمونه بالليل ، فإذا أصبح شكا ذلك ، فشكاه مرة ، فقالوا
له : ما نحن نرّميك ، ولكنّ الله يرميك ! فقال : كذبتم والله ، لو
كان الله يرميني لما أخطأني .

قال : وكان نقش خاتمه :

ياغالي حبك من غالب ارحمة عليّ بن أبي طالب
وقوله « غير الكهام » فالكهام : الكليل من الرجال والسيوف ، يقال
سيف كهام . وقوله :

« راعياً كان مسيحياً فقدنا » وفقد المسم هلك السوام ،
فالمسم : الذي يسم إبله أو غنمه ترعى ، وكذلك كل شيء من الماشية ،
فجعل الراعي للناس كصاحب الماشية الذي يسمها ويوسها ويصلحها ، ومتى لم
يترجع أمر الناس إلى واحد فلا نظام لهم ، ولا اجتماع لأموالهم . قال ابن
قيس الرقيّات :

أيها المشتبي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء
إن تودّع من البلاد قريش لا يكنّ بعدهم لحي بقاء
لو تقفني ويترك الناس كانوا غم الذئب غاب عنها الرعاء
وقال الحميريّ يعني علياً رضوان الله عليه :

كان المسم ولم يكن إلا لمن لزم الطريقة واستقام مسياً
ولما سمع عليّ صلوات الله عليه نداءهم « لاحكم إلّا الله » قال : كلمة عادلة
يواد بها جور ، إنما يقولون لا إمارة ، ولا بدّ من إمارة ، برة أو فاجرة .

وروي أن علياً عليه السلام لما أوصى إلى الحسن في وقف أمواله وأن يجعلَ فيها ثلاثة من مواله وقف فيها عين أبي نيزر والبغيغة . وهذا غلط ، لأن وقفه لهذين الموضعين لستين من خلافة .

قال أبو العباس : حدثنا أبو علفم محمد بن هشام في إسناده ذكره آخره أبو نيزر ، وكان أبو نيزر من أبناء بعض ملوك الأعاجم ، قال : وصح عندي بعد أن من ولد النجاشي ، (يعني أبا نيزر) ، فرغب في الإسلام صغيراً ، فأتى رسول الله ﷺ فأسلم ، وكان معه في بيوته ، فلما توفي رسول الله صار مع فاطمة وولدها عليهم السلام ، قال أبو نيزر : جاءني علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وأنا أقوم بالضيعتين : عين أبي نيزر والبغيغة ، فقال لي : هل عندك من طعام ؟ فقلت : طعام لا أرضاه لأمر المؤمنين ، قرع من قرع الضيعة صنعتها بإهالة سنخة ، فقال : علي به ، فقام إلى الربيع ، وهو جدول ، فغسل يديه ، ثم أصاب من ذلك شيئاً ، ثم رجع إلى الربيع ، فغسل يديه بالرمل حتى أنقما ، ثم ضم يديه كل واحدة منها إلى أختها ، وشرب بها حساً من ماء الربيع ، ثم قال : يا أبا نيزر ! إن الأكف أنظف الآنية ، ثم مسح ندى ذلك الماء على بطنه ، وقال : من أدخله بطنه النار فأبعده الله ، ثم أخذ المعول وانحدر في العين ، فجعل يضرب ، وأبطأ عليه الماء ، فخرج وقد تفضج جبينه عرقاً ، فانتكف العرق عن جبينه ، ثم أخذ المعول وعاد إلى العين ، فأقبل يضرب فيها وجعل يهيمهم فانتالت كأنها عتق جزور ، فخرج مسرعاً ، فقال أشهد الله أنها صدقة ، علي بدواة وصحيفة قال : فعبئت بها إليه ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تصدق به عبد الله علي أمير المؤمنين ، تصدق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيغة ، على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ، ليقى الله بها وجهه حر النار يوم القيامة ، لاتباعاً ولا توهباً ، حتى يرثها الله وهو خير الوارثين ، إلا أن يحتاج إليها الحسن أو الحسين فيها يطلق لها ، وليس لأحد غيرهما . قال محمد بن هشام : فركب الحسين رضي الله عنه دابة ، فحمل إليه معاوية بعين أبي نيزر مائتي ألف دينار ، فأبى أن يبيع ،

وقال : إنما تصدق بها أبي ليقى الله بها وجهه حرّ النار ، ولست بأتبعها بشيء .
وتحدث الزبيريون : أن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم ، وهو والي
المدينة : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين أحب أن يرد الألفه ، ويسل السخيمة ،
ويسل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاخطب إلى عبد الله بن جعفر ابنته
أم كلثوم على يزيد بن أمير المؤمنين ، وارغب له في الصداق ، فوجه مروان
إلى عبد الله بن جعفر ، فقرأ عليه كتاب معاوية ، وأعلمه بما في ردّ الألفه من
صلاح ذات البين ، واجتماع الدّعوة ، فقال عبد الله : إن خالها الحسين يئيب ،
وليس بمن يفتات عليه بأمر ، فأنظرني إلى أن يقدم ، وكانت أمها زينب بنت
علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فلما قدم الحسين ذكر ذلك له عبد الله
ابن جعفر ، فقام من عنده فدخل إلى الجلارية ، فقال : يا بنيّة ! إن ابن عمك القاسم
ابن محمد بن جعفر بن أبي طالب أحق بك ، ولعلك ترغين في كثرة الصداق
وقد نخلتكم البغيغات ، فلما حضر القوم للإملاك تكلم مروان بن الحكم ،
فذكر معاوية وماقصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، فتكلم الحسين فزوجها من
القاسم بن محمد فقال له مروان : أغدراً يا حسين ؟ ! فقال : أنت بدأت ،
خطب أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفان ، واجتمعنا
لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير ، فقال مروان : ما كان
ذلك ، فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب فقال : أنشدك الله ، أكان ذاك ؟
قال : اللهم نعم . فلم تزل هذه الضيعة في يدي بني عبد الله بن جعفر ، من
ناحية أم كلثوم ، يتوارثونها ، حتى ملك أمير المؤمنين المأمون ، فذكر ذلك
له ، فقال كلا ، هذا وقف علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فانتزعا من
أيديهم ، وعرضهم عنها ، وردّها إلى ما كانت عليه .

• • •

قال أبو العباس : رجع الحديث إلى ذكر الخوارج وأمر علي بن
أبي طالب .
قال : وروى أن علياً في أول خروج القوم عليه دعا صعصعة بن صوحان

العبدى ، وقد كان وجهه إليهم ، وزيد بن النضر الحارثي مع عبد الله بن العباس ، فقال لصعصعة : بأي القوم رأيتم أشد إطفاءً ؟ فقال : يزيد بن قيس الأرحبي ، فركب عليّ إليهم إلى حروراء ، فجعل يتخلّطهم ، حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتّكأ على قوسه ، وأقبل على الناس ، ثم قال : هذا مقام من قَلَج فيه قَلَج يوم القيامة ، أنشدكم الله ، أعلمتم أحداً منكم كان أكره للحكومة مني ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتُموني ونايتموني ؟ قالوا : إنّنا أتينا ذنباً عظيماً ، فتبنا إلى الله ، فتب إلى الله منه واستغفره نعد لك ؟ فقال عليّ : إني أستغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه ، وهم ستة آلاف . فلما استقرّوا بالكوفة أشاعروا أن عليّاً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً ، وقالوا : إنّما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ويحبى المال فينفض إلى الشام ، فأتى الأشعث بن قيس عليّاً عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد تحدّثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفرًا !! فخطب عليّ الناس فقال : من زعم أنّي رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالاً فهو أضلّ ، فخرجت الخوارج من المسجد ، فحكمت ، فقبل لعليّ : إنهم خارجون عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ، فوجه إليهم عبد الله بن العباس ، فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباهاً قرحةً لطول السجود ، وأيدياً كثفنت الإبل ، وعليم قمصاً مرحضّة ، وهم مشمرون ، فقالوا : ما جاء بك يا أبا العباس ؟ فقال : جئتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، وأعلمنا بربه وسنة نبيه ، وامن عند المهاجرين والأنصار ، قالوا : إنّنا أتينا عظيماً حين حكّمنا الرجال في دين الله ، فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا ، فقال ابن عباس : نشدتكم الله إلا ماصدقتم أنفسكم ! أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرب تسوي ربع حرم تصاد في الحرم ، وفي شقاق رجل وامرأته ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : فأنشدكم الله ، هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية ؟ قالوا : نعم ،

ولكن علياً محاً نفسه من إمارة المسلمين ، قال ابن عباس : ليس ذلك بمزيلها عنه ، وقد محاً رسول الله ﷺ اسمه من النبوة ، وقد أخذ عليّ على الحكمين أن لا يجورا ، وإن يجورا فعليّ أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدعي مثل دعوى عليّ ، قال : فأبشأ رأيتموه أولى فولثوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباس : و متى جار الحكماء فلا طاعة لها ولا قبول لقولها ، قال : فاتبعه منهم ألفان وبقي أربعة آلاف ، فصلّى بهم صلواتهم ابن الكواء ، وقال متى كانت حربٌ فرئيسكم شيث بن ربعيّ الرياحي ، فلم يزالوا على ذلك يومين ، حتى أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي ، قال : ومضى القوم إلى النهروان ، وكانوا أرادوا المضي إلى المدائن . قال الأخفش : كذا كان يقول المبرد « النهروان » بكسر النون والراء ، وإنما هو « النهروان » بالفتح : وانشد للطرمّاح :

قُلّ في شطّ نهروان اغتاضي

• • •

قال أبو العباس : فمن طريف أخبارهم : انهم أصابوا مسلماً ونصرانيّاً ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني ، فقالوا : احفظوا ذمة نبيكم !! ولقيهم عبد الله بن خبّاب وفي عنقه مصحفٌ ، ومعه امرأته وهي حاملٌ ، فقالوا له : إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا ان نقتلك ! قال : ما أحيا القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجلٌ منهم على رُطبةٍ فوضعها في فيه ، فصاحوا به فلفظها تورعاً ، وعرض لرجلٍ منهم خنزيراً فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد في الأرض !! فقال عبد الله بن خبّاب : ما عليّ منكم بأس ، إني لمسلم ، قالوا له : حدثنا عن أبيك ؟ قال سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، فكن عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل » . قالوا : فما تقول في أبي بكرٍ وعمر ؟ فأثنى خيراً ، فقالوا : فما تقول في عليّ أمير

الؤمنين قبل التحكيم ، وفي عثمان ست سنين ؟ فأتى خبراً ، قالوا : فما تقول في الحكومة والتحكيم ؟ قال : أقول : إن علياً أعم بكتاب الله منكم ، وأشدُّ توقياً على دينه ، وأتقذ بصيرةً ، قالوا : إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائنا ! ثم قربوه إلى شاطئ النهر ، فذبحوه ، فامدقروا دمه ، أي : جرى مستطيلاً على دقة . وساموا رجلاً نصرانياً بنخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنا لناخذها إلا بشئ ! قال ما أعجب هذا ، أقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا جني نخلة ؟

ومن طريف أخبارهم : أن غيلان بن خرشة الضبتي سهر ليلة عند زيادٍ ومعه جماعة ، فذكر أمر الخوارج ، فأنهى عليهم غيلان ، ثم انصرف بعد ليلٍ إلى منزله ، فلقبه أبو بلال مرداس بن أدية فقال له : يا غيلان ! قد بلغني ما كان منك الليلة عند هذا الفاسق ، من ذكر هؤلاء القوم الذين شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم ، ما يؤمنك أن يلقاك رجلٌ منهم ، أحرص والله على الموت منك على الحياة ، فينفذ حضنك برئحه ؟ فقال غيلان : لن يبلغك أني ذكرتهم بعد هذه الليلة .

ومرداسٌ تتعله جماعة من أهل الأهواء ، لقشفه وبصيرته ، وصحة عبادته ، وظهور ديانته ، وبيانه . تتعله المعتزلة ، وترغم أنه خرج منكراً لجور السلطان ، داعياً إلى الحق . وتحتجُّ له بقوله لزيدٍ حيثُ قال على المنبر : والله لا آخذنَّ الحسن منكم بالمسيءِ ، والحاضر منكم بالغائب ، والصحيح بالسقيم ، والمطيع بالعاصي ، فقام إليه مرداسٌ فقال : قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان وما هكذا ذكر الله عزَّ وجلَّ عن نبيه إبراهيم عليه السلام ، إذ يقولُ : (وإبراهيمَ الذي وفى ، ألا تَوَرَّوْا وَازرَوْا وَزُرْ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعَى سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى) وأنت ترغم أنك تأخذ المطيع بالعاصي ، ثم خرج في عقب هذا اليوم . والشَّيعُ تتعله ، وترغم أنه كتب إلى الحسين أن علياً صلواتُ الله عليه : أما إني لستُ أرى رأيي الخوارج ، وما أفا إلا على دين أبيك .

وهذا رأيٌ قد استهوى جماعة من الأشراف . يُروى : أنت المنذر من
لجارد كان يرى رأي الحوارج . وكان يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن
يوسف يراه . وكان صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق يراه . وكان
عدّة من الفقهاء يُنسبون إليه ، منهم عكرمة مولى ابن عباس . وكان يقال
ذلك في مالك بن أنس ، ولعل هذا يكون باطلا . ويروى الزبيريون :
أن مالك بن أنس المدني كان يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير ، فيقول :
والله ما اقتتلوا إلا على التريد الأعفر !

فأمّا أبو سعيد الحسن البصري فإنه كان يُنكرُ الحكومة ، ولا يرى
رأيهم ، وكان إذا جلس فتمكّن في مجلسه ذكر عثمان فتوحّم عليه ثلاثاً ، ولعن
قتله ثلاثاً ، ويقول : لو لم تلعنهم للعنا ، ثم يذكر علياً فيقول : لم يزل
أمير المؤمنين عليّ رحمه الله يتعرّفه النصر ، ويساعده الظفر ، حتى حكم ،
فلم تُحكّم والحقّ معك ؟ ألا تمضي قدماً لا أبالك وأنت على الحق ؟!

* * *

قال أبو العباس : وهذه كلمة فيها جفاء ، والعرب تستعملها عند الحث على
أخذ الحق والإغراء ، وربما استعملتها الجفأة من الأعراب عند المسألة والطلب ،
فيقول القائل للأمير والخليفة : انظر في امر رعيتك لا أبالك ! وسمع سليمان بن
عبد الملك رجلاً من الأعراب في سنة جدية يقول :

ربّ العباد مالنا ومالكنا قد كنت تسقينا فما بدا لكنا

انزل علينا الغيث لا أبالكنا

فأخرجه سليمان أحسن حرج ، فقال أشهد أنه لا أبأ له ولا ولد ولا صاحبة ،
وأشهد أن الخلق جميعاً عباده . وقال رجل من بني عامر بن صعصعة أبعد من
هذه الكلمة لبعض قومه :

أبني عقيل لا أبأ لأبيكم أبي وأي بني كلاب أكرم

وقال رجلٌ من طَبَّيٍّ ، أنشده أبو زيد الانصاري :

ياقرط قرط حيّ لا أبالك	ياقرط إني عليكم خائفٌ حذر
أن روى رقصٌ واصطاف أعزّه	من التلّاع التي قد جادها المطر
قلتم له اهج تيماً لا أبالك	في كفّ عبدكم عن ذاكم قصر
فإن بيت تيمٍ نو سمعت به	فيه تمتت وأرست عزها مضر

قوله « ياقرط قرط حيّ » نصبها معاً أكثر على السنة العرب ، وتأويلها :
أنهم أرادوا « ياقرط حيّ » فأقحموا « قرطاً » الثاني توكيداً ، وكذلك لجرير :

ياتيم تيم عديّ لا أبالك لا يلقينكم في سونةٍ عمر

ومثله لعمر بن لجار :

يازيد زيد العملات الذبيل تطاول الليل عليك فانزل

فإن لم ترد التوكيد والتكرير لم يجزّ إلا رفع الأول « يازيد زيد العملات »
و « ياتيم تيم عديّ » كما تقول « يازيد أخا عمرو » على النعت . ومثل الأول
في التوكيد « يابؤس للعرب » أراد : يابؤس الحرب ، فأقحم اللام توكيداً ؛
لأنها توجب الإضافة . وعلى هذا جاء « لا أبالك » و « لا أبأ لزيد » ولولا
الإضافة لم تثبت الألف في الأب ؛ لأنك تقول : رأيتُ أباك ، فإذا أفردت
قلت : هذا أبٌ صالحٌ . وإنما كانت « لا أباك » كما قال الشاعر :

أبالموت الذي لا بدّ أني مُلاقٍ لا أباك مُتخوفيني

وقال آخرٌ :

وقدمات شمّاخٌ ومات مزردٌ وأيُّ كريمٍ لا أباك مُجَلّدٌ

وقوله : « أن روى رقصٌ » « رقصٌ » رجلٌ . و « روى » استقى
لأهله ، يقال : فلانٌ راويةٌ أهله : إذا كان يستقي لأهله ، والتي على البعير
والحمار مزادةٌ ، فإذا كبوتٌ وعظمتٌ وكانت من ثلاثة آدميةٍ فهي المثلثةٌ ،
وأصغر منها السطّيحةُ ، وأصغرُهن الطَّبْنَعُ .

وقوله « واصطاف أعزّه » يريد : اقتعلت ، من الصَّيف ، أي : أصابت البقل فيه .

و « التَّلعة » : ما ارتفع من الأرض في مُستقرّ المسيل إذا تجافى السيل عن مَنته ، وجمعه « تلاع » .

وقوله : « ذو سمعت به » يريد : الذي ، وكذلك تفعل طيء ، تجعل « ذو » في معنى « الذي » ، قال زيد الحيل لبني قزارة وذكر عامر بن الطفيل فقال :

إني أرى في عامرٍ ذو تروّن

وقال عارق الطائي :

فإن لم يُغيرْ بعضُ ما قد فعلتمْ
لأنتحين للعظمِ ذو انا عارقهُ
يريد : الذي ..

ومن ظرفاء المحدثين البانية من يعمل هذا اعتماداً لإيثار لغة قومه ، قال الحسن ابن هانئ الحكمي :

حُب المدامة ذو سمعت به

لم يُبق في غيرها فضلا

وقال حبيب بن أوس الطائي :

أنا ذو عرفت فإن عرتك جهالة

فأنا المقيمُ قيامة العذال

وقال الحسن بن وهب الحارثي :

عللاني بذكرها عللاني

واسقياني أو لا فمن تسقيان

أنا ذو لم يزل يهون على الند

مان إن عزّ جانب الندمان

ويكون العزيز في ساعة الرو

ع بصدق الطعان يوم الطعان

* * *

عاد الحديث إلى ذكر الحوارج :

قال أبو العباس : وكان في جهة الحوارج لدة واحتجاج ، على كثرة

خطبائهم وشعرائهم ، وتقاذ بصيرتهم ، وتوطئن أنفسهم على الموت ، فمنهم الذي طعن فأنفذ الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : (وعجلت إليك رب لترضى) .

ويروى عن النبي ﷺ أنه لما وصفهم قال : « سيأثم التحليق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، علامتهم رجل مخدج اليد » . وفي حديث عبد الله بن عمرو : « رجل يقال له عمرو ذو الحويصرة ، أو الحيصرة » . وروى عن النبي ﷺ : « أنه نظر إلى رجل ساجد ، إلى أن صلى النبي عليه السلام ، فقال : ألا رجل يقتله ؟ فحسرت أبو بكر عن ذراعه وانتضى السيف وصمد نحوه ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال : أقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله ؟ فقال النبي عليه السلام : ألا رجل يفعل ؟ ففعل عمر مثل ذلك ، فلما كان في الثالثة قصد له علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يره ، فقال رسول الله ﷺ : لو قتل لكان أول فتنه وآخرها » .

ويروى عن أبي مريم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه ذكر المخدج عند النبي عليه السلام ، فقال أبو مريم : والله إن كان معنا لفي المسجد وكان فقيراً ، وكان يحضر طعام أمير المؤمنين عليّ إذا وضعه للمسلمين ، ولقد كسوته برنسا لي ، فلما خرج القوم إلى حروراء قات : والله لأنظرون إلى عسكرهم ، فجعلت أتخلطهم حتى صرت إلى ابن الكواء وشبث بن ربعي ، ورس عليّ تائسدهم ، حتى وثب رجل من الخوارج على رسول عليّ ، ف ضرب دابته بالسيف ، فحمل الرجل مرجه وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم انصرف القوم إلى الكوفة ، فجعلت أنظر إلى كثرتهم كأنما ينصرفون من عيد ، فرأيت المخدج ، وكان مني قريبا ، فقلت : أكنت مع القوم ؟ فقال : أخذت سلاحي أريدكم فإذا بمجاعة من الصبيان قد عرضوا لي فأخذوا سلاحي وجعلوا يتلاعبون بي ! فلما كان يوم البهر قال عليّ أمير المؤمنين : اطلبوا المخدج ، فطلبوه فلم يجدوه حتى ساء ذلك عليا ، وحتى قال رجل : لا والله يا أمير المؤمنين ما هو فيهم ،

فقال عليّ : والله ما كذبت ولا كذبت ، فبهاء وجلّ فقال : قد أصبناه يا أمير المؤمنين ، فخر عليّ ساجداً ، وكان إذا أتاه ما يُسرُّ به من الفتح سجد ، وقال : لو أعلم شيئاً أفضل منه لفعلته ، ثم قال : سياه أن يده كالثدي ، عليها شعرات كشارب السنور ، يتوني يده المجدبة ، فأتوه بها ، فنصبها .

ويروى عن أبي الجلد : أنه نظر إلى نافع بن الأزرق الحنفي وإلى نظره وتوغله وتعمقه ، فقال : إني لأجد لجهنم سبعة أبواب ، وإن أشدها حرّاً للخوارج ، فاحذر أن تكون منهم .

قال : وكان نافع بن الأزرق يتجمع عبد الله بن العباس فيسأله ، فله عنه مسائل من القرآن وغيره ، قد رجع إليه في تفسيرها ، فقبله واتحله ، ثم غلبت عليه الشقوة . ونحن ذاكرون منها صدراً إن شاء الله .

• • •

حدث أبو عبيدة معمر بن المثنى التيميُّ النسابة عن أسامة بن زيد عن عكرمة قال : رأيت عبد الله بن العباس وعنده نافع بن الأزرق وهو يسأله ، ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه (والليل وما وسق) فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إِن لَنَا قَلَانِصاً حَقَائِقَا مَسْتَوْسَقَاتٍ لَوْ يَجِدُن سَائِقَا ؟

هذا قول ابن عباس ، وهو الحق الذي لا يقدر فيه قاذح . ويعرض القول فيحتاج المبتدئ إلى أن يزداد في التفسير .

قوله : « حقائقا » إنما بنى الحقّة من الإبل ، وهي التي قد استحقّت أن يحمل عليها ، على « فعيلة » مثل « حقيقة » ولذلك جمعها على « حقائق » . ويقال : « استوسق » القوم : إذا اجتمعوا .

وروى أبو عبيدة في هذا الإسناد ، وروى ذلك غيره ، وسمعناه من غير وجه : أنه سأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحتكِ سرياً » فقال ابن عباس : هو الجدول ، فسأله عن الشاهد : فأنشده :

سَلَمًا تَرَى الدَّالِجَ مِنْهَا أَزُورًا إِذَا يَبْعُجُ فِي السَّرِيِّ هَرَهْرًا
« السَّلَمُ » : الدَّلْوُ الَّذِي لَهُ عُرْوَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ دَلْوُ السَّقَّائِينَ ، وَهُوَ الَّذِي
ذَكَرَهُ طَرِيقَةُ فَقَالَ :

لَهَا مَرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّمَا أَمْرًا بِسَلْمِي دَالِجٍ مُتَشَدِّدٍ
و « الدَّالِجُ » ، الَّذِي يَمْشِي بِالدَّلْوِ بَيْنَ الْبَثْرِ وَالْحَوْضِ وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ يُنْشِدُونَ :
« تَرَى الدَّالِيَّ مِنْهُ أَزُورًا » وَهَذَا خَطَأٌ لَا وَجْهَ لَهُ .

وَرَوَى أَبُو عِيْدَةَ وَغَيْرُهُ : أَنَّ ثَابِعًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ (عَتَلٍ
بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) : مَا الزَنِيمُ ؟ قَالَ : هُوَ الدَّعِيُّ الْمَلَزَقُ ، أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ
حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَأَزِيدٍ فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ الْكَارِعِ ؟

وَيَزَعُمُ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنَّ اسْتِثْقَاءَ ذَلِكَ مِنَ الزَّيْمَةِ الَّتِي يَجْلُقُ الشَّاةُ ، كَمَا يَقُولُونَ
لَمَنْ دَخَلَ فِي قَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ : زَعْنَفَةٌ وَلِلْجَمْعِ « زَعَانِفٌ » ، وَ « الزَّعْنَفَةُ »
الْجَنَاحُ مِنْ أَجْنَحَةِ السَّمَكِ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ : كَذَا قَالَ « زَعْنَفَةُ »
وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ « زَعْنَفَةُ » بِكسر الزَّاي وَهُوَ الْوَجْهُ .

وَيُرْوَى عَنْ غَيْرِ أَبِي عِيْدَةَ : أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ جَلٌّ اسْمُهُ (وَالتَّقْتِ السَّاقُ
بِالسَّاقِ) ؟ قَالَ الشَّدَّةُ بِالشَّدَةِ ، فَسَأَلَهُ عَنِ الشَّاهِدِ ؟ فَأَنْشَدَهُ :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضًّا وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمْرًا

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَقَرَأْتُ عَلَى عِمَارَةَ بْنِ عَقِيلٍ بْنِ بِلَالٍ بْنِ جَرِيرٍ قَصِيدَةَ جَرِيرٍ ،
الَّتِي يَهْجُو فِيهَا آلَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ ، وَيَمْدَحُ هَلَالَ بْنَ أَحْوَزَ الْمَازَنِيَّ ، وَيَذْكُرُ
الْوَقْعَةَ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ عَلَيْهِمُ بِالسُّدِّ فِي سُلْطَانِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، بِسَبَبِ
خُرُوجِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ عَلَيْهِ :

أَقُولُ لَهَا مِنْ لَيْلَةٍ لَيْسَ طَوُّهَا كَطَوْلِ اللَّيَالِي لَيْتَ صُبْحُكَ نَوْرًا
أَخَافُ عَلَى نَفْسِ ابْنِ أَحْوَزَ إِنَّهُ جَلَا مُحَمَّدًا فَوْقَ الْوَجْهِ فَأَسْفَرَا

قال الشيخ أبو يعقوب : الذي رَوِيَتْ في شعر جرير :

حِذاراً على نفسِ ابنِ أحوزِ إنه جلا كلَّ وجهٍ من معدٍ فأسفرا

وقوله « عدي » ، يعنى عديّ بن أرطاة الفزاريّ ، قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسطٍ ، وكان عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

جعلتَ لقبرٍ للخيارِ ومالكٍ وقبرٍ عديّ في المقابرِ أقبرا

ويروى « للخيارِ وواسطٍ » الحيارُ : موضعٌ بعمانَ ، فيه قبرُ الحيارِ بن سبرة المجاشعي ، وواسطٌ : بها قبرُ عدي بن أرطاة الفزاري .

وأطفأتَ نيرانَ المزونِ وأهلها وقد حاولوها فِتنةً أن تسعرا

« المزونُ » ، عمانُ ، بالفارسية .

فلم تبقِ منهم رايةٌ يعرفونها ولم تبقِ من آل المهلب عسكرا

الأربُ سامي الطرف من آل مازنِ إذا شمرت عن ساقها الحربُ شمرا

فهذا نظيرُ ذلك . و « المزونُ » ، عمانُ . قال الكميّ :

فأما الأزْدُ أزْدُ أبي سعيدٍ فأكروه أن أسميها المزونا

وقال آخرُ يعني الحربَ :

فإن شمرت لك عن ساقها فوها حذيفَ ولا تسام

تقولُ : « وها لزيدٍ » إذا زجرته عن الشيء فأنغريته به . و « واهأله » : إذا تعجبت منه . و « حذيفَ » يريدُ حذيفة ، فرّخه .

ويروى عن أبي عبيدة من غير وجهٍ : أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباسٍ فقال : أرأيتَ نبيَّ الله سليمانَ صلى الله عليه وسلم ، مع ما خوّله الله وأعطاه ، كيف عني بالهددِ على قلته وضوئِهِ ؟ فقال له ابن عباسٍ : إنه احتاجَ إلى الماء ، والهدد قنّاءٌ ، الأرض له كالزجاجة ، يرى باطنها من ظاهرها ، فسأل عنه لذلك . قال ابنُ الأزرقِ : قِفْ ياوقافُ ! كيف يصيرُ ما تحت الأرضِ والفخُّ يغطّي له بمقدارِ إصبعٍ من ترابٍ فلا يبصرُهُ حتى يقع فيه ؟ فقال ابنُ عباسٍ : ويحك يا ابنَ الأزرقِ ! أما علمتَ أنه إذا جاء القدرُ عشيَّ البصرِ ؟ !

وبما سألناه عنه (الم ، ذلك الكتاب) فقال ابن عباس : تأويله :
 هذا القرآن . هكذا جاء ، ولا أحفظُ عليه شاهداً عن ابن عباس ، وأنا أحسبه
 أنه لم يقبله إلا بشاهد ، وتقديره عند النحويين إذا قال « ذلك الكتاب » : أنهم
 قد كانوا وعدوا كتاباً ، هكذا التفسير ، كما قال جل ثناؤه : (فلما جاءهم
 ما عرفوا كفروا به) يعني بذلك اليهود ، وقال : (يعرفونه كما يعرفون
 أبناءهم) ، فعناه : هذا الكتاب الذي كنتم تتوقعونه . وبيت خفاف بن ندبة
 على ذلك يصحُّ معناه . وكان من خبره : أنه غزاه مع معاوية بن عمرو أخيه
 خنساء ، مرة وفزارة ، فعمد ابننا حرمة دريد وهاشم المزيان عمدة معاوية ،
 فاستطرد له أحدهما ، فحمل عليه معاوية ، فطعنه ، وحمل الآخر على معاوية
 فطعنه متمكناً ، وكان صميم الحيل ، فلما تادوا قتل معاوية :

قال خفاف بن ندبة ، وهي أمه ، وكانت حبشية ، وأبوه عمير ، وهو أحد
 بني سليم بن منصور : قتلني الله إن رمت حتى أثار به ، فحمل على مالك بن
 حمير ، وهو سيد بني شميخ بن فزارة ، فطعنه فقتله ، فقال خفاف بن ندبة :

إن تك خلي قد أصيب صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا
 وقفت له علوى وقد خام صحتي لأبني بجداً أو لأثار هالكا
 أقول له والرُّمَح يا طر متته : تأمل خفافاً إنني أنا ذلِكَ

يريد : أنا ذلك الذي سمعت به . هذا تأويل هذا . وقوله « يا طر متته » أي
 يثني . يقال أطرت القوس أطرها أطراً ، وهي ماطورة . و « علوى » فرسه .

وبما سألناه عنه قوله عز وجل : (لهم أجرٌ غير ممنونٍ) فقال ابن عباس :
 غير مقطوع ، فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بني
 يشكر ، حيث يقول :

وترى خلفهن من مرعة الرجل مع منيناً كأنه أهباء
 قال أبو العباس : « منين » يعني الغبار ، وذلك أنها تقطعه قطعاً ورامها ،
 و « المنين » الضعيف المؤذن بانقطاع ، أنشدني التوزي عن أبي زيد :

باريتها إن سلمت عيني . وسلم الساق الذي يلينني . ولم تخنني عقد المنين
تريد الحبل الضعيف ، فهذا هو المعروف ، ويقال « منين » و « ممنون » كقتيل
ومقتول ، وجريح وجروح ، وذكر التوزي في كتاب الأضداد أن « المنين »
يكون القوي ، يجعله « فعلاً » من « المنة » والمعروف هو الأول .
وقال غير ابن عباس : (لهم أجر غير ممنون) لا يُمن عليهم فيكدر
عندهم .



ويروى من غير وجه : أن ابن الأزرق أتى ابن عباس يوماً فجعل يائه
حتى أمله ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر ، وطلع عمر بن عبد الله بن أبي
ربيعه على ابن عباس ، وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس :
ألا تنشيدنا شيئاً من شعرك ؟ فأنشده :

<p>أمن آل نعم أنت غاد فبكر بجاجة نفس لم تقل في جوابها نهم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا قرب نعم إن دنت لك نافع وأخرى أنت من دون نعم ومثلها إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة عزيز عليه أن أمر يابها ألكني إليها بالسلام فإنه بآية ما قالت غداة لقيتها قفي فانظري باسم هل تعرفينه ؟ أهذا الذي أطربت نعتاً فلم أكن فقلت : نعم ، لا شك غير لونه لئن كان إياه لقد حال بعدنا</p>	<p>غداة غد أم رائح فهجرت ؟ فتبلغ عندي والمقالة تعذر ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر ولا نأياً يسلي ولا أنت تصبر نهي ذا النهي لو يرعوي أو يفكر لها كلها لاقية يتمر مسر لي الشجاء والبغض مظهر يشهر إلامي بها وينكر يدفع أكناف هذا الشهر ؟ أهذا المغيري الذي كان يذكر ؟ وعيشك أنساه إلى يوم أقبر ؟ ! سرى الليل يحبي نضته والتهجر عن العبد والإنسان قد يتغير</p>
--	---

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضى وأما بالعشي فيخسر حتى أتيا ، وهي ثانون بيتاً ، فقال له ابن الأزرق : الله أنت يا ابن عباس ! أنضرب إليك أكباد الإبل ، نسألك عن الدين ، فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش ، فينشدك سقياً فسمعه ؟! فقال : والله ما سمعت سقياً ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشي فيخسر ؟ فقال : ما هكذا قال ، إنما قال « فيضى وأما بالعشي فيخسر » قال : أو تحفظ الذي قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه ، ولو شئت أن أردتها لرددتها ! قال : فارددها ؟ فأنشده إياها كلها .

وروى الزبيريون : أن نافعاً قال له : ما رأيت أروى منك قط ، فقال له ابن عباس : ما رأيت أروى من عمر ، ولا أعلم من علي .

وقوله « فيضى » يقول : يظهر للشمس . و « يخسر » يقول : في البردين ، فاذا ذكر العشي فقد دل على عيب العشي . قال الله تبارك وتعالى : (وأنت لا تعلم فيها ولا تضحى) « والضحى » الشمس ، وليس من « ضحيت » يقال : جاء فلان بالضح والريح ، يُراد به الكثرة . قال علقمة :

أغرأ أبرزه للضح راقبه مقلد قضب الریحان مغموم له « فغمة » أي : رائحة طيبة ، يعني إريقاً فيه شراب . وفي الحديث : « أن رسول الله ﷺ لما توجه إلى تبوك جاء أبو خيثمة ، وكانت له امرأتان ، وقد أعدت كل واحدة منها من طيب ثمر بستانه ، ومهدت له في ظل ، فقال : أظلل بمدود ، وثمره طيبة ، وماء بارد ، وامرأة حسنة ، ورسول الله في الضح والريح !؟ ما هذا بخير ، فركب ناقته ومضى في أثره . وقد قيل لرسول الله ﷺ في نفر تخلفوا ، أبو خيثمة أحدهم ، فجعل لا يذكر له أحد منهم إلا قال : دعوهُ فإن يُرد الله به خيراً يُلحقه بكم ، فقيل ذات يوم : يا رسول الله ! نرى رجلاً يرفعهُ الآل ، فقال رسول الله ﷺ كن أباً خيثمة ، فكان هو . »

وإذا انبسطت الشمس فهو « الضحى » مقصور ، فإذا امتدَّ النهار وبينها مقدار ساعة أو نحو ذلك فذلك « الضحاء » ممدود مفتوح الأول .

★ ★ ★

وذكرت الرواة : ان الحجاج أتى بامرأة من الخوارج ، وبحضرة يزيد بن ابي مسلم مولاه ، وكانت يستير برأي الخوارج ، فكلَّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد بن ابي مسلم : الأمير ويحك بكلمك ! فقالت : بل الويل والله لك يا فاسق الردى . « والردى » عند الخوارج : هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه .

وذكروا انَّ عبد الملك بن مروان أتى برجلٍ منهم فبحثه ، فرأى منه ما شاء فهاً وعلماً ، ثم بحثه ، فرأى ما شاء إرباً ودهياً ، فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصراً محققاً ، فزاد في الاستدعاء ، فقال له : لتغنيك الأولى عن الثانية ، وقد قلت فسمعت ، فاسمع أقل ، قال له : قل ، فجعل يبسط له من قول الخوارج ويؤن له من مذهبهم بلسانٍ طلقٍ وألفاظٍ بيّنة ومعانٍ قريبة ، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يُوقِع في خاطري ان الجنة خلقت لهم ، وأني أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ماثبت الله عليّ من الحجة وقرّر في قلبي من الحق ، فقلت له : لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطني الله في الدنيا ، ومكن لنا فيها ، وأراك لست تحيب بالقول ، والله لأقتلنك إن لم تطيع ، فأنا في ذلك إذ دخل عليّ بابني مروان - قال ابو العباس : كان مروان أخا يزيد لأمه ، أمها عائكة بنت يزيد بن معاوية ، وكان ابناً عزيز النفس ، فدخّل به في هذا الوقت على عبد الملك - باكياً لضرب المؤذّب إياه ، فشقّ ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجي ، فقال له : دعه يبك ، فإنه أرحب لشديقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ان لا تابى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها ، فأعجب

ذلك من قوله عبد الملك ، فقال له متعبياً : أما يشغلك ما أنت فيه وبِعَرَضِهِ
عن هذا ؟ فقال : ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء ، فأمر
عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال بعد يعتذر إليه : لولا أن تقصد
بالفاظك أكثر رعتي ما حبستك ، ثم قال عبد الملك : من شككني ووهمني
حتى مالت بي عصمة الله فغير بعيد أن يستهوي من بعدي . وكان عبد الملك
من الرأي والعلم بموضع .

وترجم الرواة : أن رجلاً من أهل الكتاب وفد على معاوية ، وكان موصوفاً
بقراءة الكتب ، فقال له معاوية : اتجد نعتي في شيء من كتب الله ؟ قال :
إي والله ، لو كنت في أمة لوضعت يدي عليك من بينهم ! قال : فكيف
تجدني ؟ قال أجدك أول من يحول الخلافة ملكاً ، والحشنة لينا ، ثم إن
ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ ، قال معاوية : فسري عني ، ثم قال : لا تقبل
هذا مني ، ولكن من نفسك ، فاختر هذا الخبر ! قال : ثم يكون ماذا ؟
قال : ثم يكون منك رجل شرابٌ للخمر ، سفاكٌ للدماء ، يحتجن الأموال ،
ويضطعن الرجال ويحنب الحول ، ويبيع حرمة الرسول ! قال : ثم ماذا ؟
قال : ثم تكون فتنة تشعب بأقوام حتى يفضي الأمر بها إلى رجل أعرف
نعتي ، يبيع الآخرة الدائمة بحظيرة من الدنيا مخسوس ، فيجتمع عليه ، من
آلِكَ وليس منك ، لا يزال لعدوه قاهراً ، وعلى من ثاواه ظاهراً ، ويكون له
قرينٌ ميينٌ لعين ! قال : أفترفه إن رأيت ؟ قال : شديماً ، فأراه من بالشام
من بني أمية ، فقال : ما أراه هنا ، فوجه به إلى المدينة مع ثقات من
رأسه ، فإذا عبد الملك يسعى مؤثراً في يده طائرٌ ، فقال للرأسل : ها هو ذا ،
ثم صاح به : إليّ أبو من ؟ قال : أبو الوليد ، قال : يا أبا الوليد ! إن
بشرتك ببشارة تسرك ما تجعل لي ؟ قال : وما مقدارها من السرور حتى
نعلم مقدارها من الجعل ؟ قال : أن تملك الأرض ! قال : مالي من مال ،
ولكن أرايتك إن تكلفت لك جعلاً أنال ذلك قبل وقته ؟ قال : لا ،

قال : فإن حرمتك أتوخره عن وقته ؟ قال : لا ، قال : فحسبك ما سمعت !!
فذكروا أن معاوية كان يكرم عبد الملك ليجعلها يبدأ عنده بجاربه بها في
مخلقه في وقته .

وكان عبد الملك من أكثر الناس علماً . وأبرعهم أدباً ، وأحسنهم في شيبته
دبابة ، فقتل عمرو بن سعيد ، وتسمى بالحلاقة ، فسلم عليه بها أوّل
تسليمه ، والمنصف في حجره ، فأطبقه وقال : هذا فراق بيني وبينك !!

قال أبو العباس : وحدثني ابن عائشة عن حماد بن سلمة في إسناد ذكره :
أن عبد الملك كان له صديق ، وكان من أهل الكتاب ، يقال له يوسف ،
فأسلم ، فقال له عبد الملك يوماً - وهو في عنقوان نسكه ، وقد مضت
جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري ، من مرّة غطفان - يريد
المدينة - : ألا ترى خيل عدوّ الله قاصدة لحرم رسول الله ﷺ ؟ ! فقال
له يوسف : جيشك والله إلى حرم رسول أعظم من جيشه ! فنقض عبد الملك
ثوبه ، ثم قال : معاذ الله ! قال له يوسف : ما قلت ساكناً ثوباً ، وإني
لأجدك بجميع أوصافك ، قال له عبد الملك : ثم ماذا ؟ قال : ثم يتداولها
رهطك ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان .

قال : وحدثت عن ابن جعدبة ، قال : كنت عند أمير المؤمنين
المنصور ، في اليوم الذي أناه فيه خروج محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ،
قال : فغمّة ذلك ، حتى امتنع من الغداء في وقته ، وطال عليه فكره ،
فقلت : يا أمير المؤمنين ! أحدثك حديثاً ؟ كنت مع مروان بن محمد ، وقد
قصده عبد الله بن علي ، قال : فإننا لكذلك إذ نظر إلى الأعلام السود من
بعدي ، فقال : ما هذه البغت المجلّة ؟ قلت : هذه أعلام القوم ، قال : فمن
تحتها ؟ قلت : عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس ، قال : وأبهم عبد
الله ؟ فقلت : الفتي المعروق الطويل ، الحفيف العارضين ، الذي رأته في وليمة
كذا يأكل فيجيد ، فالتفتي عنه فنسبته لك ، فقلت : إن هذا الفتي لتلقامة ،

قال : قد عرفته ، والله لوددت أن علي بن أبي طالب مكانه ، قال : فقال لي المنصور : آله لسمعت هذا من مروان بن محمد ؟ قلت : والله لقد سمعته منه ، قال : يا غلام ! هات الغداء .

* * *

قال أبو العباس : وكان أهل النخيلة جماعة بعد أهل النهروان ، ممن فارق عبد الله بن وهب ، ومن لجأ إلى راية أبي أيوب ، ومن كان أقام بالكوفة ، فقال : لا أقاتل علياً ولا أقاتل معه ، فتواصوا فيما بينهم وتعاضدوا ، وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم ، فقام منهم قائم يقال له المستورد ، من بني سعد بن زيد مناة ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ، ثم قال : إن رسول الله ﷺ أتانا بالعدل ، تحقق رايته ، معلناً مقالته ، مبلغاً عن ربّه ، ناصحاً لأمتّه ، حتى قبضه الله غييراً مختاراً ، ثم قام الصديق فصدق عن نيته وقاتل من ارتدّ عن دين ربّه ، وذكر أن الله عز وجل قرن الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل إحداهما طعن على الأخرى ، لابل على جميع منازل الدين ، ثم قبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام بعده الفاروق ، ففرق بين الحق والباطل ، مسوياً بين الناس في إعطائه ، لا مؤثراً لأقاربه ، ولا محكماً في دين ربّه ، وها أنتم تعلمون ما حدث ، والله يقول : (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) فكل أجاب وباع ، فوجه إليهم علي بن أبي طالب عبد الله بن العباس داعياً ، فأبوا ، فسار إليهم ، فقال له عفيف بن قيس : يا أمير المؤمنين ! لا تخرج في هذه الساعة ؛ فإنها ساعة نحس لعدوك عليك ! فقال له علي : توكلت على الله وحده ، وعصيت رأي كل متكهن ، أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان ؟ ! إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم) ، ثم سار إليهم فطعنهم جميعاً ، لم يفلت منهم إلا خمسة ، منهم المستورد ، وابن جوين الطائي ، وفروة بن شريك الأشجعي ، وهم الذين ذكرهم الحسن البصري ، فقبال : دعاهم إلى دين الله

فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً ، فسار إليهم أبو حنيفة فطحنهم طحناً .

وفيهما يقول عمران بن حطان :

إني أدن بما دانت الثّراة به
وقال الحميري يعارض هذا المذهب :

إني أدن بما دانت الوصي به
وبالذي دان يوم النهر دنت به
تلك الدماء معاً يارب في عنقي
يوم النخيلة عند الجوسق الحرب

يوم النخيلة من قتل المحلينا
وماركت كفه كفي بصفينا
ومثلها فاسقني أمين آمينا

وكان أصحاب النخيلة قالوا لابن عباس : إذ كان عليّ على حقٍ لم يشكك فيه وحكمتم مُضطراً فما باله حيث ظفر لم يسب ؟ فقال لهم ابن عباس : قد سمعتم الجواب في التحكيم ، فأما قولكم في السباء أفكنتم ما بين أمّكم عائشة ؟! فوضعوا أصابعهم في آذانهم ، وقالوا : أمسك عنا غرب لسانك يا ابن عباس ! فإنه طلق ذلق ، غواص على موضع الحجة . ثم خرج المستورد بعد ذلك بدمية على المغيرة بن شعبة ، وهو والي الكوفة ، فوجه إليه معقل بن قيس الرياحي ، فدعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له : علام يقتل الناس بيني وبينك ؟ فقال له معقل : النصف سألت ، فأقسم عليه أصحابه ، فقال : ما كنت لأبى عليه ، فخرج إليه ، فاختلفا ضربتين ، فخر كل واحدٍ منها ميتاً .

وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آداب يوصي بها وهي محفوظة عنه .

كان يقول : إذا أفضيت بسرّي إلى صديقي فأفشاه لم أله ، لأنّي كنت أولى بحفظه .

وكان يقول : لا تنفس إلى أحدٍ سرّاً ، وإن كان مخلصاً ، إلا على جهة المشاورة .

وكان يقول : كنّ أحرص على حفظ سرّ صاحبك منك على حقن دميك .

وكان يقول : أول ما يدلُّ عليه عائُ الناس معرفتهُ بالعبوب ، ولا يعيبُ إلا معيبٌ .

وكان يقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك .

وكان يقول : بذلُ المالِ في حقِّه استدعاءٌ للزيد من الجواد .

وكان يُكثرُ أن يقولَ : لو مُلكت الأرض بحذاقيهما ثم دعيتُ إلى أن أستفيدَ بها خطيئةٌ ما فعلتُ .

★ ★ ★

قال : وخرجت الخوارجُ ، واتصل خروئُها ، وإلما تذكر منهم من كان ذا خبرٍ طريفٍ ، واتصلت به حكمٌ من كلامٍ وأشعارٍ .

فأول من خرج بعد قتل عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام حوثةُ الاسديّ ، فإنه كان مُتبعياً بالبندنيين ، فكتب إلى حابس الطائي يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية ، فأجابهُ ، فرجعا إلى موضع أصحاب النخيلة ، ومعاوية بالكوفة حيث دخلها مع الحسن بن علي ابن أبي طالب صلواتُ الله عليه ، بعد أن بايعهُ الحسن والحسين عليهما السلام ، وقيس بن سعد بن عبادة ، ثم خرج الحسن يريدُ المدينة ، فوجهُ إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه يسأله أن يكون المتولي لمحاربتهم ، فقال الحسن : والله لقد كفت عنك لحقن دماء المسلمين ، وما أحسبُ ذلك يسعني ، أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتال منهم ؟! فلما رجع الجوابُ إليه وجهُ إليهم جيشاً أكثرهم من أهل الكوفة ، ثم قال لأبيه أبي حوثة : اكفني أمر ابنك ، فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع ، فأبى فأداره ، فصمم ، فقال له : يا بني ! أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه ؟ فقال : يا أبت ! أنا والله إلى طعنة نافذةٍ أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوقُ مني إلى ابني ! فرجع إلى معاوية فأخبره الخبر ، فقال : يا أبا حوثة ! عتا هذا جداً ، فلما نظر حوثة إلى أهل الكوفة قال : يا أعداء الله ! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه ، واليوم تقاتلون

مع معاوية لتشدوا سلطانه !! فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز ، فقال : يا أبت !
لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك عنك مذهب ، ثم حمل على القوم
وهو يقول :

أُدررُ على هذي الجموع حوثه فغن قليل ما قتال المغفرة
فحمل عليه رجلٌ من طيء فقتله ، فرأى أثر السجود قد لوح جبهته ، فقدم على
قتله ، ثم انهزم القوم جميعاً .

وأنا أحسب أن قول القائل :
وأجراً من رأيت بظهر غيب
على عيب الرجال ذوو العيوب
إنما أخذه من كلام المستورد .

قال رجلٌ للمستورد : أريدُ أن أرى رجلاً عياباً ، قال : التمسه بفضل
معايب فيه .

وقال العباسُ بن الأحنف يعاتب من اتهمه بإفشاء سرّه :

تعتبت تطلب ما أستعق	به المهر منك ولا تقدر
وماذا يضرك من شهوتي	إذا كنت سرك لا يشهر
أمني تخاف انتشار الحديث	وحظي في ستره أوفر
ولو لم تكن في بقيا عليك	نظرت لنفسي كما تنظر

★ ★ ★

ويروى من حديث محمد بن كعب القرظي قال : قال عمارُ بن ياسر :
« خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات العشيرة . فلما قفلنا نزلنا منزلاً ،
فخرجتُ أنا وعلي بن أبي طالب صلواتُ الله عليه ننظرُ إلى قومٍ يعتملون ،
فتعسنا ، فتمنا ، فسفت علينا الريح التراب ، فما نبها إلا كلام رسول الله ﷺ ،
فقال لعلي : يا أبا تراب ! لما عليه من التراب ، أتعلم من أشقى الناس ؟ فقال :
خبرني يا رسول الله ؟ فقال : أشقى الناس اثنان : أحمرٌ ثمود الذي عقر الناقة ،

وأشقاها الذي يخضب هذه ، ووضع يده على لحيته ، من هذا ، ووضع يده على قرنه ، .

ويروى عن عياض بن خليفة الخزاعي قال : تلقاني أمير المؤمنين عليّ صلوات الله عليه في الغلس ، فقال لي : من أنت ؟ قلت : عياض بن خليفة الخزاعي ، فقال : ظننتك أشقاها الذي يخضب هذه من هذا ، ووضع يده على لحيته وعلى قرنه .

ويروى : أنه كان يقول كثيراً - قال أبو العباس : أحسبه عند الضجر بأصحابه - : ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه من هذا ؟

ويروى عن رجل من ثقيف أنه قال : خرج الناس يعطون دوابهم بالمداين ، وأراد عليّ أمير المؤمنين السير إلى الشام ، فوجهه معقل بن قيس الرياحي ليوجههم إليه ، وكان ابن عمّ لي في آخر من خرج ، فأتيت الحسن بن عليّ عليه السلام ذات عشية ، فسألته أن يأخذ لي كتاب أمير المؤمنين إلى معقل بن قيس في التوفية عن عمّي ، فإنه في آخر من خرج ، فقال : تغدو علينا والكتاب مختومٌ إن شاء الله تعالى ، فبت ليلي ، ثم أصبحت والناس يقولون : قتل أمير المؤمنين الليلة ، فأتيت الحسن ، وإذا به في دار عليّ عليه السلام ، فقال : لولا ما حدث لقضينا حاجتك ، ثم قال : حدثني أبي عليه السلام البارحة في هذا المسجد فقال : يا بني ! إني صليت ما رزق الله ، ثم نمت نومة ، فرأيت رسول الله ﷺ ، فشكوت إليه ما أنا فيه من مخالفة أصحابي وقلة رغبتهم في الجهاد ، فقال : ادع الله أن يريحك منهم ، فدعوت الله ، قال الحسن : ثم خرج إلى الصلاة فكان ما قد علمت .

وحدثت من غير وجه : أن علماً لما ضرب ثم دخل منزله اعتوته غشية ثم أفاق ، فدعا الحسن والحسين ، فقال : أوصيكم بتقوى الله والرغبة في الآخرة ، والزهد في الدنيا ، ولا تأسفا على شيء فاتكم منها ، اعملا الخير ، وكونا للظالم خصماً ، والمظلوم عوناً ، ثم دعا محمداً فقال : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلى ، قال : فإني أوصيك به ، وعليك ببر أخويك

وتوقيرهما ومعرفة فضلها ، ولا تقطع أمراً دونها ، ثم أقبل عليها فقال :
أوصيكما به خيراً ، فإنه شقيقكما وابن أيكما ، وأنتا تعلمان أن أباكما كان
محبباً ، فأجاباه . فلما قضى عليّ كرم الله وجهه قالت أمّ العريان :

وَكُنَّا قَبْلَ مَهْلِكِ زَمَانًا نَرَى نَجْوَى رَسُولِ اللَّهِ فِينَا
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَكْرَمَهُمْ وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ فَلَا قَرَّتْ عُيُونُ الشَّامِتِينَ

ويروى : أن عبد الرحمن بن ملجم بات تلك الليلة عند الأشعث بن
قيس بن معدية كربة ، وأت محجر بن عديّ سمع الأشعث يقول له :
فضحك الصبح ، فلما قالوا : قتل أمير المؤمنين قال محجر بن عديّ للأشعث :
أنت قتله بأعور ! ويروى : أن الذي سمع ذاك أخو الأشعث ، عفيف بن
قيس ، وأنه قال لأخيه : عن أهلك كان هذا بأعور !

وأخبار الخوارج كثيرة طويلة ، وليس كتابنا هذا مفرداً لهم ،
ولكننا نذكر من أمورهم ما فيه معنى وأدب ، أو شعراً مستطرفاً ،
أو كلاماً من خطبة معروفة مختارة .

تخرج قريب بن مرة الأزديّ وزحاف الطائي ، وكانا مجتهدين بالبصرة
في أيام زياد ، واختلف الناس في أمورهما ، أيها كان الرئيس ، فاعترضوا الناس ،
فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار ، فقتلاه ، وكان يقال له
رؤبة الضبيّ ، وتنادى الناس ، فخرج رجل من بني قطيعة من الأزد وفي
يده السيف ، فناداه الناس من ظهور البيوت : الحرورية الحرورية ! انج
بنفسك ، فتأدوه : لنا حرورية ، نحن الشرط ، فوقف فقتلوه ، وبلغ
أبا بلال خبرهما ، فقال : قريب لا قرّبه الله من الخير ، وزحاف لا عفا الله

عنه ، ركبها عشواء مظلمة ، يريد اعتراضها الناس ، ثم جعلوا لا يمر أن بقية إلا قتلوا من وجدا ، حتى مرّا ببني علي بن سود من الأزد ، وكانوا رماة ، وكان فيهم مائة يجيدون الرمي ، فرمواهم رميا شديدا ، فصاحوا : يا بني علي ! البقا ، لا رماة بيننا ، فقال رجل من بني علي :

لا شيء للقوم سوى السهام مشحونة في غلّس الظلام

فعمد عنهم الحوارج ، وخافوا الطلب ، فاستقوا مقبرة بني يشكر ، حتى نفذوا إلى مزينة ، ينتظرون من يلحق بهم من مضر وغيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجت إليهم بنو طاحية بن سود وقبائل مزينة وغيرها ، فاستقل الحوارج فقتلوا عن آخرهم ، ثم غدا الناس إلى زياد فقال : ألا نهى كل قوم سفاهم ؟ يا معشر الأزد ! لولا أنكم أطفأتم هذه النار لقت إنكم أرتسموها ، فكانت القبائل إذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وثاقا وأتت بهم زبادا ، فكان هذا أحدا ما يذكر من صحة تديروه .

وله أخرى في الحوارج : أخرجوا معهم امرأة ، فظفروا بها فقتلها ، ثم عرّوها . فلم تخرج النساء بعد علي زياد ، وكن إذا دعين إلى الخروج قلن : لولا التعرية لسارّعنا .

ولما قتل مصعب بن الزبير بنت النعمان بن بشير الأنصارية امرأة المختار - وليس هذا من أخبار الحوارج - أنكره الحوارج غاية الإنكار ، ورأوه قد أتى بقتل النساء أمرا عظيما ، لأنه أتى مانه عن رسول الله ﷺ في سائر نساء المشركين . وللخواص منهن أخبار ، فقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عطبول
قيلت باطلا على غير ذنب إن لله درها من قتل
كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات بحر الذبول

قال : وكانت الحوارج أيام ابن عامر أخرجوا معهم امرأتين ، يقال لإحدهما كحيلة ، والأخرى قطام ، فجعل أصحاب ابن عامر يعيرونهم ويصيحون بهم : يا أصحاب كحيلة وقطام ! يعرضون لهم بالفجور ، فتناديهم الحوارج بالدفع والردع ، ويقول قائلهم : لا تقف ما ليس لك به علم .

ويروى عن ابن عباس في هذه الآية : (والتدين لا يشهدون الزور وإذا مرثوا بالغلو مروا كراماً) قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعود : الزور : الغناء فقل لا بن عباس : أو ما هذا في الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزور : (ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) .



عاد الحديث إلى أمر الحوارج .

وكان من المجتهدات من الحوارج ، ولو قلت : من المجتهدين - وأنت تعني امرأة - كان أفصح ، لأنك تريد رجالاً ونساءً هي إحداهم ، كما قال الله عز وجل : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القائتين) وقال جل ثناؤه : (إلا عبثوا في الغابرين) . منهم البلجاء ، وهي امرأة من بني حرام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، من رطب سجاح ، التي كانت ثباتاً ، وسنداً خبيراً في موضعه إن شاء الله . وكان مرزاس ابن حدير أبو بلال ، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة متعظم الحوارج ، وكان مجتهداً كثير الصواب في لفظه ، فلقبه غيلان بن خرشة الضبي ، فقال : يا أبا بلال ! إني سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء ، وأحسبها ستؤخذ ، فمضى إليها أبو بلال ، فقال لها : إن الله قد وسع على المؤمنين في التقيّة . فاستترى ، فإن هذا المشرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك ، قالت : إن يأخذني فهو أشقى بي ، فأمّا أنا فما أحب أن يُعنت إنسان

بسبي ، فوجه إليها عيّد الله بن زياد فأتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق ، فمرّ أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاء ، فخرج إليها فنظر ، ثمّ عضّ على لحيته ، وقال لنفسه : لهذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك يامرداس .

ثمّ إنّ عيّد الله تتبّع الخوارج فحبسهم ، وحبس مرداساً ، فرأى صاحب السجن شدّة اجتهاده وحلاوة منطقته ، فقال له : إني أرى لك مذهباً حسناً ، وإني لأحب أن أوليك معروفاً ، أفرايت إن تركتك تتصرف ليلاً إلى بيتك ، أتدّلعج إليّ ؟ قال : نعم . فكان يفعل ذلك به ، ولج عيّد الله في حبس الخوارج وقتلهم ، فكلم في بعض الخوارج فليجّ وأبى ، وقال : أقمع النفاق قبل أن ينبجم ، لكلام هؤلاء أمرع إلى القلوب من النار إلى البراع ، فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلاً من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدري ما أصنع هؤلاء ، كلّما أمرت رجلاً بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله ؟! لأقتلن من في حبسي منهم ، فأخرج السجنان مرداساً إلى منزله كما كان يفعل ، وأتى مرداساً الخبر ، فلما كان السحر نهياً للرجوع ، فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت ، فقال : إني ما كنت لألقى الله غادراً ! فرجع إلى السجنان ، فقال : إني علمت ما عزم عليه صاحبك ، فقال : أعلمت ورجعت ؟ !

ويروى : أن مرداساً مرّ بأعرابيّ مهناً بعيراً له ، فهرج البعير ، فقط مرداس مغشياً عليه ، فظن الأعرابي أنه قد صرع ، فقرأ في أذنه ، فلما أفاق قال له الأعرابي : قرأت في أذنك ، فقال له مرداس : ليس بي ماخفته علي ، ولكنني رأيت بعيرك هرج من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ، فأصابني مارأيت ، فقال : لا جرم والله لا فارقك أبداً .

وكان مرداس قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، وأنكر التحكيم ، وشهد النهْر ، ونجا فيمن نجا ، فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جد ابن زياد في طلب الشراء ، عزم على الخروج ، فقال لأصحابه :

إنه والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجري علينا أحكامهم ، مجانبين للعدل مفارقين للفصل ، والله إن الصبر على هذا لعظيم ، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم ، ولكننا نتبذ عنهم ، ولا نجرّد سيفاً ، ولا نقاتل إلا من قاتلنا ، فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً ، منهم حريث بن حجل ، وكهمس بن طلق الصريمي ، فأرادوا أن يولوا أمرهم حريشاً ، فأبى فولوا أمرهم مرداساً ، فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاري ، وكان له صديقاً ، فقال له : ياخي أين تريد ؟ قال أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة ، فقال له : أعلم بكم أحد ؟ قال : لا ، قال : فارجع ، قال : أو تخاف علي مكروها ؟ قال : نعم ، وأن يؤتى بك ، قل : فلا تخف ، فإني لا أجرّد سيفاً ، ولا أخيف أحداً ، ولا أقاتل إلا من قاتلني ، ثم مضى حتى نزل آسك ، وهو ما بين رامهرمز وأرجان ، فمر به مالٌ يحمل لابن زياد ، وقد قارب أصحابه الأربعين ، فحط ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه ، ورد الباقي على الرسل ، وقال : قولوا لصاحبكم : إنما قبضنا أعطياتنا ، فقال بعض أصحابه : فعلام ندع الباقي ؟ فقال : إنهم يقسمون هذا الفياء كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم .



ولأبي بلال أشعارٌ في الخروج اخترت منها قوله :

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاءً أو أرجى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا ربّ سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى ألاقي أولثكا

قوله : « وقد قتلوا » ولم يذكر أحداً ، وإنما فعل ذلك لعلم الناس أنه يعني مخالفه ، وإنما يحتاج الضمير إلى ذكرٍ قبله ليعرف ، فلو قال رجلٌ : ضربته ، لم يجز ، لأنه لم يذكر أحداً قبل ذكره الهاء ، ولو رأيت قوماً يلتمسون

الهلل فقال قومٌ : هذا هو ، لم يحتج إلى مقدمة الذكر ؛ لأن المطلوب معلومٌ ، وعلى هذا قال علقمة بن عبدة في افتتاح قصيدته :
هل ما علمت ما استودعت مكتوم أم جلبها إذ نأثك اليوم مصروم
لأنه قد علم أنه يريد حبيبة له :
وقوله : « حتى ألاقى » ولم يحرك الياء فقد مضى شرحه مستقصى .



ويروى : أن رجلاً من أصحاب ابن زياد قال : خرجنا في جيش يزيد خراسان ، فردنا بآسك ، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلاً ، فصاح بنا أبو بلال : أقاصدون لقتالنا أتم ؟ وكنت أنا وأخي قد دخلنا زرباً ، فوقف أخى يبابه فقال : السلام عليكم ، فقال مرداسٌ : وعليكم السلام ، فقال لأخى : أجتّم لقتالنا ؟ فقال له : لا ، إنما يزيد خراسان ، قال : فأبلغوا من لقيمك أنا لم نخرج لنفس في الأرض ، ولا لتروّع أحداً ، ولكن هرباً من الظلم ، ولنا نقاتل إلا من يقاتلنا ، ولا نأخذ على الفياء إلا أعطياتنا ، ثم قال : أندب إلينا أحدٌ ؟ قلنا : نعم ، أسلم بن زرة الكلبي ، قال : فمتى تروته يصل إلينا ؟ قلنا : يوم كذا وكذا ، فقال أبو بلال : حبنا الله ونعم الوكيل .

وجّهزَ عيدُ الله أسلم بن زرة في أسرع وقتٍ ، ووجهه إليهم في ألفين ، وقد تمام أصحاب مرداس أربعين رجلاً ، فلما صار إليهم أسلمٌ صاح به أبو بلال : اتق الله يا أسلم ؛ فإننا لا نريد قتالاً ، ولا نحتجن فياً ، فما الذي تريد ؟ قال أريد أن أردكم إلى ابن زياد ، قال مرداسٌ : إذا يقتلنا ، قال : وإن قتلكم ! قال : تشركه في دمانا ؟ قال : إني أدين الله بأنه حق وأنكم مبطلون ، فصاح به حريث بن حبل : أهو حق وهو بطيع الفجرة ، وهو أحدم ، ويقتل بالظنّة ، ويخص بالقيء ، ويجور في الحكم ؟! أما علمت أنه قتل ببن سعاد أربعة برآء ، وأنا أحد قتلته ، ولقد وضعت في بطنه دراهم كانت معه ؟! ثم

حملوا عليه حمة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال ! وكان معبد
 — أحد الخوارج — قد كاد يأخذه فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضباً شديداً ، وقال :
 ويلك ! أنمضي في ألفين فتنهزم لحمة أربعين ؟! وكان أسلم يقول : لأنت ينمضي
 ابن زياد حياً أحب إلي من أن يمدحني ميتاً !! وكان إذا خرج إلى السوق أو
 مر بصبيان صاحوا به : أبو بلال وراءك !! وربما صاحوا به : يا معبد خذ !!
 حتى شكا ذلك إلى ابن زياد ، فأمر ابن زياد الشرط أن يكفوا الناس عنه ،
 فقي ذلك يقول عيسى بن قاتك ، من بني تميم اللات بن ثعلبة ، في كلمة له :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا	إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم	قتل نوء الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاكم	سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لنا أتاكم	بأن القوم ولوا هاريننا
ألفا مؤمن فيما زعمتم	ويهزمهم بأسك أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة ينصروننا

ثم ندب لهم عبيد الله بن زياد الناس ، فاختر عباد بن أخضر ، وليس
 بابن أخضر ، هو عباد بن علقمة المازني ، وكانت أخضر زوج أمه ، فغلب
 عليه ، فوجهه في أربعة آلاف ، فهد لهم ، ويزعم أهل العلم أن القوم قد
 كانوا تتحوا عن درا يجرد من أرض فارس ، فصار إليهم عباد ، وكان التعاظم
 في يوم جمعة ، فناداه أبو بلال : اخرج إلي يا عباد ، فإني أريد أن أحاورك !
 فخرج إليه ، فقال : ما الذي تبغي ؟ قال : أن آخذ بأقنائكم فأردكم إلى الأمير
 عبيد الله بن زياد ! قال : أو غير ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : أن ترجع ،
 فإننا لا نخيف سيلاً ، ولا نذعر مسلماً ، ولا نخارب إلا من حاربنا ، ولا نجبي
 إلا ما جئنا ، فقال له عباد : الأمر ما قلت لك ، فقال له حريث بن حبل :
 أتحاول أن ترد فئة من المسلمين إلى جبار عبيد ؟ قال لهم : أنتم أوئلي بالضلال
 منه ، وما من ذاك بدء .

وقدم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج ، فلما رأى الجمع قال :
ما هذا ؟ قالوا الشراة ، فحمل عليهم ، وتشيت الحرب ، فأخذ القعقاع أسيراً ،
فأتى به أبو بلال ، فقال : ما أنت ؟ قال . لست من أعدائك ، وإنما قدمت
للحج فجهلت وغررت ! فأطلقه ، فرجع إلى عباد فاصلح من شأنه ، ثم حمل
عليهم ثانية ، وهو يقول :

أقاتلهم وليس علي بعث
أكرؤ على الحرورين مهري
نشاطاً ليس هذا بالنشاط
لأحملهم على وضع الصراط

فحمل عليه حريث بن حجل السدوسي وكهمس بن طلق الصريمي ، فأمرأه
فقتلاه ولم يأتيا به أبا بلال ، فلم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت الصلاة ،
صلاة يوم الجمعة ، فتأداهم أبو بلال : يا قوم ! هذا وقت الصلاة ، فوادعونا حتى
نصلي وتصلوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا إلى
الصلاة ، فأمرع عباد ومن معه والحرورية مبطؤون ، فهم من بين راكم وقائم
وساجد في الصلاة وقاعد ، حتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلهم جميعاً ، وأتى
برأس أبي بلال .

وتروى الشراة : أن مرداساً أبا بلال لما عقد على أصحابه وعزم على الخروج
رفع يديه وقال : اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية ، قال : فرجف
البيت . وقال آخرون : فارتفع السقف .

فروى أهل العلم : أن رجلاً من الخوارج ذكر ذلك لأبي العالية الرياحي
يعجبه من الآية ، ويرغبه في مذهب القوم ، فقال أبو العالية : كاد الحنف ينزل
بهم ثم أدركتهم نظرة الله .

فلما فرغ من أولئك الجماعة أقبل بهم فصلبت رؤوسهم ، وفيهم داؤود بن شيب ،
وكان ناسكاً ، وفيهم حبيبة النصري من قيس وكان مجتهداً .

فيروى عن عمران بن حطان : أنه قال : قال لي حبيبة : لما عزمت على

الخروج فكرت في بناتي ، فقلت ذات ليلة لأمسكن عن تقشمن حتى انظر ،
فلما كان في جوف الليل استسقت بنية لي ، فقالت : يا أبة اسقني فلم أجبها ،
فأعادت ، فقامت أخية لها أسن منها فسقتها ، فعلت أن الله عز وجل غير
مضيعهن ، فأتممت عزمي .

وكان في القوم كهنس ، وكان من أبر الناس بأمه ، فقال لها بأمة !
لولا مكانك لخرجت ، فقالت يابني ! قد وهبتك لله ، ففي ذلك يقول عيسى
ابن فاتك الجطي :

ألا في الله لا في الناس مآل	بداؤود وإخوته الجدوع
مضوا قسلاً ومزيقاً وصلباً	تحوم عليهم طير وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه	فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الحوف نومهم فقاموا	وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال عمران بن حطان :

يا عين بكئي لمرداس ومصرعه	يارب مرداس اجعلني كمرداس
تركني هائماً أبكي لمرزئي	في منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يامرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلأ	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

★ ★ ★

قال أبو العباس : ثم إن عباد بن أخضر المازني لبث دهرأ في مصر ،
محموداً موصوفاً بما كان منه ، فلم يزل على ذلك حتى ائتمر به جماعة من الخوارج
أن يقتكوا به ، فذمر بعضهم بعضاً على ذلك ، فجلسوا له في يوم جمعة ،
وقد أقبل على بغلة له ، وابنه رديفه ، فقام إليه رجل منهم ، فقال : أسالك
عن مسألة ؟ قال : قل ، قال : رأيت رجلاً قتل رجلاً بغير حق ، وللقاتل

جاء وقدر وناحية من السلطان ، الولي ذلك المقتول أن يفتك به إن قدر عليه ؟ قال : بل يرفعه إلى السلطان ، قال : إن السلطان لا يعدي عليه لمكانه منه وعظيم جاهه عنده ، قال : أخاف عليه إن فتك به فتك به السلطان ، قال : دع ما تخافه من ناحية السلطان ، أتلقه تبعه فيما بينه وبين الله ؟ قال : لا ، قال : فحكم هو واصحابه ، وخطوه بأسياقهم ، ورمى عباد ابنه فتجا ، وتنادى الناس : قتل عباد ، فاجتمع الناس فأخذوا أفواه الطرق ، وكان مقتل عباد في سكة بني مازن عند مسجد بني كليب ، فجاء معبد بن أخضر أخو عباد ، وهو معبد بن علقمة ، وأخضر زوج أمها ، في جماعة من بني مازن ، فصاحوا بالناس : دعونا وثارتا ، فأحجم الناس وتقدم المازنيون ، فحاربوا الحوارج حتى قتلهم جميعاً ، لم يفلت منهم أحد إلا عبيدة بن هلال ، فإنه خرق خصاً ونفذ منه ، ففي ذلك يقول الفرزدق :

لقد أدرك الأوتار غير ذميمة إذا ذم طلاب الترات الأخضر
هم جردوا الأسياق يوم ابن أخضر فقالوا التي ما فوقها قال ثائر
أقادوا به أسداً لها في اقتعاصها إذا برزت نحو الحروب بصائر
ثم ذكر بني كليب : لأنه قتل بحضرة مسجدهم ولم ينصروه ، فقال في كلمته هذه :

كفعل كليب إذ أخلت بجارها ونصر اللثيم معتم وهو حاضر
وما لكليب حين تذكر أول وما لكليب حين تذكر آخر
وقال معبد بن أخضر :

سأحي دماء الأخضريين إنه أبي الناس إلا أن يقولوا ابن أخضرا

وكان مقتل عباد وعبيد الله بن زياد بالكوفة ، وخليفته على البصرة عبيد الله بن أبي بكر ، فكتب إليه يأمره أن لا يدع أحداً يعرف بهذا الرأي إلا حبيسه وجد في طلبه ، بمن تغيب منهم ، فجعل عبيد الله بن أبي بكر يتبعهم فيأخذهم ، فإذا شفع إليه في أحد منهم كفه إلى أن يقدم ابن زياد ، حتى أتى

بعروة بن أدية فأطلقه ، وقال : أنا كفيلك ، فلما قدم عبيد الله بن زياد أخذ من في السجن منهم فقتلهم جميعاً ، وطلب الكفلاء بمن كفلوا به منهم ، فكل من جاءه بصاحبه أطلقه وقتل الخارجي ، ومن لم يأت بمن كفله به منهم قتله ، ثم قال لعبيد الله بن أبي بكرة : هات عروة بن أدية ، قال : لا أقدر عليه ، قال : إذا والله أقتلك فإنك كفيده ! فلم يزل يطلبه حتى دُلَّ عليه في سرب العلاء بن سوية المنقري ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد ، فقرأ عليه الكاتب : إنا أصبناه في سرب ، فتهافت به عبيد الله بن زياد ، وكان كثير المحاورة ، عاشقاً للكلام الجيد ، مستحسناً للصواب منه ، لا يزال يبحث عن عذره ، فإذا سمع الكلمة الجيدة عرج عليها .

ويروى : أنه قال في عقب مقتل الحسين بن علي عليه السلام لزينب بنت علي رحمهما الله ، وكانت أسن من حمل إليه منهن ، وقد كلمته فأفصحت وأبلغت ، وأخذت من الحجة حاجتها ، فقال لها : إن تكوني بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً ، فقالت : ما للنساء والشعر ؟! وكلت مع هذا الكن يرتضخ لغة فارسية ، وقال لرجل مرة ، واثمه برأي الخوارج : أهروري منذ اليوم ؟!

رجع الحديث :

فقال للكاتب : صحفت والله ولؤمت ، إنما هو في سرب العلاء بن سوية ، ولوددت أنه كان بمن يشرب النبيذ ، فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه حاوره ، وقد اختلف الناس في خبره ، وأصح عندنا : أنه قال له : لقد جهزت أخاك علي ، فقال : والله لقد كنت به ضيقاً ، وكانت لي عزاً ، ولقد أردت له ما أريده لنفسي ، فعزم عزمياً فمضى عليه ، وما أحب لنفسي إلا المقام وترك الخروج ، قال له : أفأنت علي رأيه ؟ قال : كلنا نعبد رباً واحداً ! قال : أما لأمثلك بك ! قال : اختر لنفسك من القصص ما شئت ؟ فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ، ثم قال له : كيف ترى ؟ قال : أفسدت علي دنياي وأفسدت عليك آخرتك ، ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره ، ثم دعا مولاة فسأله عنه ، فأجابه جواباً قد مضى ذكره .

قوله « فتهاق ، حقيقة : تضاحك به ضحك مزعج » ، وقال ابن أبي ربيعة
التهزومي :

ولقد قالت لجارات لها	وتعرت ذات يوم تبتد :
أكما ينعتني تبصرتني	عمر كن الله أم لا يقصد ؟
فتهاقن وقد قلن لها :	حسن في كل عين من تود
حسد محمله من أجلها	وقديماً كان في الناس الحد

. . .

وكان عيّد الله لا يلبث الخوارج ، يحبسهم ثلثة ويقتلهم ثارة ، وأكثر ذلك
يقتلهم ، ولا يتغافل عن أحد منهم . وسبب ذلك أنه كان أطلقهم من حبس
زياد لما ولي بعده ، ففرجوا عليه .

فأما زياد فكان يقتل المعلن ويستصلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تقول
التهمة ، ووجه يوماً بجينة بن كيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يراى
رأي الخوارج ، فجاءه بجينة فأخذه ، فقال : إني أريد أن أحدث وضوء
للصلاة ، فدعني أدخل إلى منزلي ، قال : ومن لي بخروجك ؟ قال : الله عز
وجل ، فتركه ، فدخل فأحدث وضوء ، ثم خرج فأتى به بجينة زياداً ، فلما
مثل بين يديه ذكر الله زياداً ، ثم صلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر
وعثمان بنخير ، ثم قال : قعدت عني فأنكرت ذلك ، فذكر الرجل ربه
فحمده ووحده وأثنى عليه ، ثم ذكر النبي عليه السلام ، ثم ذكر أبا بكر
وعمر بنخير ، ولم يذكر عثمان ، ثم أقبل على زياد فقال : إنك قد قلت قولاً
فصدقه بفعلك ، وكان من قولك : ومن قعد عنا لم نهجه ، فقعدت ، فأمر
له بصلة وكسوة وحملان ، فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه ،
فقال : ما لكم أستطيع أن أخبره ، ولكني دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا
نفعاً لنفسه ، ولا موتاً ولا حياة ولا ثوراً ، فرزق الله منه ماترون .

وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني
إلا الرثلة ، فيقولون : أجل ، فيحملهم ، ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي ،

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فقال : قاتل الله زياداً ، جمع لهم كما تجمع
النزعة ، وحاطهم كما تحوط الأم البوّة ، وأصلح العراق ، بأهل العراق ،
وترك أهل الشام في شأهم ، وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر
ألف ألف .

قال أبو العباس : وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير ، من أهل البأس
والنجدة ، أنه يرى رأي الخوارج ، فدعاه فولاه جندى سابور وما يليها ، ورزقه
أربعة آلاف درهم في كل شهر ، وجعل عماله في كل سنة مائة ألف ، فكان
أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة !!
فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياداً شيئاً ، فتمرّ لزياد فحبسه ، فلم يخرج من
حبسه حتى مات .

* * *

وقال الرّثين ، وكان رجلاً من مراد ، وكان لا يرى القعود عن الحرب وكان
في الدهاء والمعرفة والشعر والفقه ، يقول الخوارج ، بمنزلة عمران بن حطان ،
وكان عمران بن حطان في وقته شاعر قعد الصفرية ورئيسهم ومفتيهم .
وللرّثين المرادي ولعمران بن حطان مسائل كثيرة من أبواب العلم في القرآن
وفي الآثار ، وفي السير والسنن ، وفي الغريب وفي الشعر ، نذكر طريفها إن
شاء الله . قال المرادي :

يأنف قد طال في الدنيا مشراوغي	لا تأمن لصرف الدهر تنغيصا
إني لبائع ما يفنى لباقيّة	إن لم يعقني رجاء العيش تريصا
وأسأل الله بيع النفس محتسباً	حتى ألاقى في الفردوس حرقوصا

قال الأخفش : حرقوص : ذو الشدة .

وابن المنيع ومرداس وإخوته إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا
قال أبو العباس : وهذه كلمة له ، وله أشعار في مذاهبهم .

وكان زيادٌ وليّ شيان بن عبد الله الأشعري صاحب مقبرة بني شيان باب
عثمان وما يليه ، فجاء في طلب الحوارج وأخافهم ، وكانوا قد كثروا ، فلم يزل
كذلك حتى أتاه ليلة وهو متكئ بياب داره وجلان من الحوارج ، فضرباه
بأسيافها فقتلاه ، وخرج بنون له للاغاثة فقتلوا ، ثم قتلها الناس فأتي زيادٌ بعد
ذلك يوجل من الحوارج ، فقال : اقتلوه متكئاً كما قتل شيان متكئاً ، فصاح
الحارجي : يا عدلاء !! هزأ به !

فأما قول جرير :

ومنا قتي القتيان والبأس معقلٌ ومنا الذي لاقى بدجلة معقلا
— : فإنه أراد معقل بن قيس الرياحي ، ورياح ابن يربوع ، وجرير من بني
كليب بن يربوع .

وقوله « ومنا الذي لاقى بدجلة معقلا » يريد المستورد التيمي ، وهو من
بني تيم بن عبد مناة بن أد ، ونميم ابن مر بن أد .

وأما قول ابن الرقيات :

والذي نغص ابن دومة ماتو حي الشياطين والسيوف ظماء
فأباح العراق يضربهم بالسيف صلتاً وفي الضراب غلاء
— : فلما يريد ابن دومة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، والذي نغصه
مصعب بن الزبير ، وكان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجياً ، ثم صار
زبيرياً ، ثم صار رافضياً في ظاهره !!

وقوله « ماتو حي الشياطين » فإن المختار كان يدعي أنه يلهم ضرباً من
لشجاعة لأموز تكون ، ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله
عز وجل .

فمن ذلك قوله ذات يوم : لتزلن من السماء نارٌ دماء ، فلتحرقن دار
أسماء ، فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أقد سجع بي أبو إسحق ؟ هو
الله محرق داري ! فتركه والدار وهرب من الكوفة .

وقال في بعض سبّعه : أما والذي شرع الأديان ، وجنب الأوثان ،
وكره العصيان ، لأقتلن أزدهمان ، وجُلّ قيس عيلان ، وتميّا أولياء الشيطان ،
وحاشا النجيب ظيان ! فكان ظيان النجيب يقول : لم أزل في عمر المختار
أقلب آمناً .

• • •

ويروى : أن المختار بن أبي عبيد حيث كان والياً لابن الزبير على الكوفة
اتهمه ابن الزبير ، فولى رجلاً من قريش الكوفة ، فلما أطلّ قال لجماعة من
أهلها : اخرجوا إلى هذا المغرور فردّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : أين تريد ؟
والله لئن دخلت الكوفة ليقطنك المختار ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير : إن صاحبك
جاءنا فلما قاربنا رجع ، فما أدري ما الذي ردّه ! فغضب ابن الزبير على القرشي
وعجزه وردّه إلى الكوفة ، فلما شاربها قال المختار : اخرجوا إلى هذا المغرور
فردّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتلك ، فرجع ، وكتب المختار
إلى ابن الزبير بمثل كتابه الأول ، فلام القرشي ، فلما كان في الثالثة فطن ابن
الزبير ، وعلم بذلك المختار ، وكان ابن الزبير قد حبس محمد بن الحنفية مع خمسة
عشر رجلاً من بني هاشم ، فقال : لتبايعنّ أو لأحرقنكم ، فأبوا بيعته وكان
السجن الذي حبسهم فيه يدعى سجن عارم ، ففي ذلك يقول كثير :

تخبّر من لاقيت أنك عائدٌ بل العائد المظلوم في سجن عارم
ومن يلتق هذا الشيخ بالحيف من منى من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمي النبي المصطفى وابن عمه وفكاك أغلال وقاضي مغارم
وكان عبد الله بن الزبير يدعى العائد ، لأنه عاذ باليت ، ففي ذلك يقول
ابن الرُّقَيَات يذكر مصعباً :

بلدٌ تآمن الحماة فيه حيث عاذ الخليفة المظلوم
وكان عبد الله يدعى المُحِلّ ، لإحلاله القتال في الحرم ، وفي ذلك يقول
رجل في رملة بنت الزبير :

ألا من لقلبٍ مُعنى غزلٍ بذكر الهمة أخت المهل

وكان عبد الله بن الزبير يظهر البغض لابن الحنفية إلى بغض أهله ، وكان يحسده على أيده ، ويقال : أن علياً استطال درعاً فقال : لينقص منها كذا وكذا حلقة ، فقبض محمد بن الحنفية بإحدى يديه على ذيلها ، وبالأخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حده بوه فكان ابن الزبير إذا حدث بهذا الحديث غضب واعتراه له أفكل ، فلما رأى المختار أن ابن الزبير قد فطن لما أراد كتب إليه : من المختار بن أبي عبيد الثقفي خليفة الوصي محمد بن علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أسماء ، ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه ، وكان قبل ذلك في وقت إظهاره طاعة ابن الزبير يدس إلى الشيعة ، ويعلمهم موالاته إياهم ، ويخبرهم أنه على رأيهم وحمد مذاهبهم ، وأنه سيظهر ذلك عما قليل ، ثم وجه جماعة تسير الليل وتكمن النهار ، حتى كسروا سجن عارم واستخرجوا منه بني هاشم ، ثم ساروا بهم إلى مأمهم .

وكان من عجائب المختار أنه كتب إلى إبراهيم بن مالك الأشتر يسأله الخروج إلى الطلب بدم الحسين بن علي رضي الله عنها ، فأبى عليه إبراهيم إلا أن يستأذن محمد بن علي بن أبي طالب ، فكتب إليه يستأذنه في ذلك ، فعلم محمد أن المختار لا عقد له ، فكتب محمد إلى إبراهيم بن الأشتر : إنه ما يسوءني أن يأخذ الله بحقنا على يدي من يشاء من خلقه ، فخرج معه إبراهيم بن الأشتر . فتوجه نحو عبيد الله بن زياد ، وخرج يشيعه ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحق ! : إني أحب أن تغبر قدمي في نصره آل محمد عليهم السلام ، فشيعة فرسخين ، ودفع إلى قوم من خاصته حماماً أيضاً ضخماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها ، وقال للناس : إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حصم حصه فإني أجد في حكم الكتاب ، وفي اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بلانكة غضاب ، تأتي في صور الحمام دوين السحاب ! فلما صار ابن الأشتر بخازر وبها عبيد الله بن زياد قال : من صاحب الجيش ؟ قيل له :

ابن الأشر ، قال أليس الغلام الذي كان يطير الحمام بالكوفة ؟ قالوا : بلى ، قال : ليس بشيء ، وعلى ميمنة ابن زياد حُضَيْنُ بن عَمِير السَّكُونِيُّ من كندة ، ويقال السَّكُونِي والسَّكُونِي ، والسَّدُومِيُّ والسَّدُومِيُّ ، كذا كان أبو عبيدة يقول ، (قال أبو الحسن : السَّكُونِيُّ أَكْثَرُ) وعلى ميسرته عَمِيرُ بن الحباب فارسُ الاسلام ، فقال حُضَيْنُ بن عَمِير لابن زياد : ان عَمِيرُ بن الحباب غير ناسٍ قتل المرج ، وإني لا أتق لك به ، فقال ابن زياد : أنت لي عدوٌّ ، قال حُضَيْنُ : متعلمٌ ، قال ابن الحباب : فلما كان في الليلة التي نريد أن نواقع ابن الأشر في صيحتها خرجت إليه ، وكان لي صديقاً ، ومعى رجلٌ من قومي ، فصرْتُ إلى عسكره ، فرأيتَه وعليه قميص هرويٍّ وملاءةٌ ، وهو متشعُّ السيف يحوسُّ عسكره فيأمر فيه وينهى ، فالتزمت من ورائه ، فوافقه ما التفت إلي ، ولكن قال : من هذا ؟ فقلت : عَمِيرُ بن الحباب ، فقال : مرحباً بأبي المغلسِ ، كن بهذا الموضع حتى أعود إليك ، فقلت لصاحبي : رأيت أشجع من هذا قط ؟ ! يحتضنه رجلٌ من عسكر عدوِّه ، ولا يدري من هو ؟ فلا يلتفتُ إليه !! ثم عاد إلي وهو في أربعة آلاف ، فقال : ما الخبر ؟ فقلت : القوم كثيرٌ ، والرأي أن تتأجزم ، فانه لا صبر بهذه العصاة القليلة على مطاولة هذا الجمع الكثير ، فقال : نصبح إن شاء الله ثم نحاكمهم إلى طبقات السيوف وأطراف القنا ، فقلت : أنا منخزلٌ عنك بثلاث الناس غداً ، فلما التقوا كانت على أصحاب ابراهيم في أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فتصايح الناس : الملائكة !! فتراجعوا ، ونكس عَمِيرُ بن الحباب رايته ، ونادى يا لتأرات المرج ! وانخزل بالميسرة كلها ، وفيها قيسٌ فلم يعصوه ، واقتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأمرع القتل في أصحاب عبيد الله بن زياد ، ثم انكشفوا ، ووضع السيفُ فيهم حتى أفتوا ، فقال ابن الأشر : لقد ضربتُ رجلاً على شاطئ هذا النهر فرجع إليَّ سيفي ومنه رائحة المسك ! ورأيت إقداماً وجراًةً ، فصرعته فذهبت يداها قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب ، فانظروه ، فاتوه بالتياران ، فاذا هو عبيد الله بن زياد .

وقد كان عند المختار كرمي قديم العهد ، فغشاء بالدياج ، وقال : هذا الكرمي من ذخائر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فضعوه في براكاه الحرب ، وقاتلوا عليه ، فان محله فيكم محل السكينة في بني إسرائيل !! ويقال أنه اشترى ذلك الكرمي بدرهمين من نجار .

وقوله « في براكاه القتال » يقال براكاه وبروكاه ، وهو موضع اصطدام القوم ، قال الشاعر :

وليس بمنقذ لك منه إلا براكاه القتال أو الفرار

x x x

هذا باب اللام

التي للاستغانة والتي للاضافة

إذا استغثت بواحدٍ أو بجماعةٍ فاللام مفتوحةٌ ، تقول : بالرجالِ ، وبالقومِ ،
وبالزيدِ ، إذا كنت تدعوم .

وإنما فتحها لتفصيل بين المدعو والمدعو له ، ووجب أن تفتحها لأن أصلَ
اللام الحافضة إنما كان الفتح ، فكسرت مع المظهر ليفصل بينها وبين لام
التوكيد ، تقول : إن هذا لزيدٌ ، إذا أردت إن هذا زيدٌ ، وتقول :
إن هذا لزيدٌ ، إذا أردت أنه في ملكه ، ولو فتحت لالتبس .

فإن وقعت اللام على مضمرةٍ فتحها على أصلها ، فقلت : إن هذا لك ،
وإن هذا لأنت ، إذا أردت لام التوكيد ، لأنه ليس هنا لبسٌ ، وذلك
أن الأسماء المضمرة على غير لفظ المظهرة ، فلها أجرئتها على الأصل ،
والاستغانة تردُّها إلى أصلها من أجل اللبس .

والمدعو له في بابهِ ، فاللام معه مكسورةٌ ، تقول : بالرجالِ للماءِ ،
والرجالِ للعجبِ ، وبالزيدِ للخطبِ الجليلِ ، قال الشاعر :

بالرجالِ ليومِ الأربعاءِ أما ينفكُّ يعثُّ لي بعد النسي طرباً
وقال آخرُ :

تكنفني الوُشاةُ فازعجوني فإلِّس الناسِ للنواشي المطاعِ

وفي الحديث لما طعن العليُّ أو العبدُ عمرَ بن الخطاب رضوان الله عليه
صاح : يا الله بالتمسكين .

وتقول : يا لعجب ، إذا كنت تدعو إليه ، و د يا ، لغير العجب ،
كأنك قلت : بالناس للعجب ، و يُنشد هذا البيت :

بالعنة الله والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جار

فـ د يا ، لغير اللعنة ، كأنه قال : يا قوم لعنة الله والأقوام كلهم .
وزعم سيويه أن هذه اللام التي للاستغاثـة دليل ، بمنزلة الألف التي تُبينُ
بالهاء في الوقف إذا أردت أن تُسمع بعيداً ، فإنما هي للاستغاثـة بمنزلة هذه
اللام ، وذلك قولك : يا قوماء ، على غير الندبة ، ولكن للاستغاثـة
ومد الصوت .

والقول كما قال ، محلها عند العرب محل واحد ، فإن وصلت حذفت
الهاء ، لأنها زِيدَتْ في الوقف لحقاه الألف ، كما تَرادُ لبيان الحركة ، فإذا
وصلت أغنى ما بعدها عنها ، تقول : يا قومًا تعالوا ، ويا زيدا لا تفعل .
ولا يجوز أن تقول بالزيد وهو مُقبلٌ عليك ، وكذلك لا يجوز أن تقول :
يا زيدا وهو معك ، إنما يقال ذلك للبعد ، أو يُنبه به النائم .

فإن قلت : بالزيد ولحمرو ، كسرت اللام في د عمرو ، وهو مدعو ،
لأنك إنما فتحت اللام في د زيد ، لتفصل بين المدعو والمدعو إليه ، فلما عطفت
على د زيد ، استغثت عن الفصل ، لأنك إذا عطفت عليه شيئاً صار في
مِثْل حاله .

ونظير ذلك الحكاية ، يقول الرجل : رأيتُ زيدا ، فتقول ، من زيدا ؟
ويقول : مررتُ بزید ، فتقول : من زید ؟ وإنما حكيت قوله ليعلم أنك
إنما تستفهمه الذي ذكر بعينه ، ولا تسأله عن زيد غيره ، والموضع موضع
رفع ، لأنه ابتداء وخبر ، فإن قلت : ومن زيد ؟ أو فمن زيد ؟ لم يكن
إلا رفعاً ، لأنك عطفت على كلامه ، فاستغثت عن الحكاية ، لأن العطف
لا يكون مستأنفاً .

ونظيرُ هذا الذي ذكرتُ لك في اللام قول الشاعر :
يُنْكِيكَ نَارُ بَيْعِ الدَّارِ مُغْتَوِبٌ يَأْكُلُ كُثُولَ الشُّبَّانِ الْعَجَبِ
فقد أحكمتُ لك كلَّ ما في هذا الباب .

ثم نعودُ إلى ذكرِ الخوارج

قال أبو العباس : وذُكرَ لعبيدِ الله بن زيادٍ رجلٌ من بني سدُوس ، يقال له خالد بن عبادٍ ، أو ابنُ عبادَةٍ ، وكان من مُتَسَاكِمٍ ، فوجهَ إليه فأخذه ، فأثاه رجلٌ من آل ثورٍ ، فكذبَ عنه ، وقال : هو صِهْرِي وهو في ضِمْنِي ، فضلى عنه ، فلم يزل الرجلُ يتفقدهُ حتى تغيَّبَ ، فأتى ابنُ زيادٍ فأخبره ، فبعثَ إلى خالد بن عبادٍ فأخذه ، فقال مُعَيِّدُ الله بن زيادٍ : أين كنتَ في غيبتِكَ هذه ؟ قال : كنتُ عند قومٍ يذكرونَ اللهَ ويذكرونَ أئمةَ الجورِ فيتبرؤنَ منهم ! قال : ذُلّني عليهم ، قال : إذنْ يسعدوا وتشقى ، ولم أكنْ لأُرْوِعهم ! قال : فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمرَ ؟ قال : خيراً ، قال : فما تقولُ في أمير المؤمنين عثمانَ ، أتولاهُ وأمير المؤمنين معاويةَ ؟ قال : إن كانا وليَّينِ لله فليستُ أعاديهما ، فأراغهُ مراتٍ فلم يرجع ، فعزَمَ على قتله ، فأمرَ بإخراجه إلى رجةٍ تُعرفُ برجةِ الزَّيْنِي ، فجعلَ الشرطُ يتفادونَ من قتله ، ويرؤغونَ عنه توقياً ، لأنه كان شاسفاً عليه أثرُ العبادةِ ، حتى أتى المثلُمُ بنُ مسرُوحٍ الباهليُّ ، وكان من الشرطِ ، فتقدّمَ فقتله ، فاثمرَ به الخوارجُ ليقتلوه ، وكان رجلاً مُغرماً باللقاحِ ، يتبعُها فيشتريها من مظانِّها ، وهم في تقفدهِ ، فدرسوا إليه رجلاً في هيئةِ الفتيانِ ، عليه ردعُ زعفرانٍ ، فلقبه بالمربد وهو يسأل عن لقمةٍ صفيٍ ، فقال له الفتى : إن كنتَ تبلغُ فعندي ما يغنيك عن غيره ، فامضِ معي ، فضى المثلُمُ على فرسه والفتى أمامه ، حتى أتى به بني سعدٍ ، فدخل داراً ، وقال له : ادخل على فرسك ، فلما دخل وتوغل في الدار أغلق البابَ ، وثارت به الخوارجُ فاعتوره حرَّيثُ بن جطلٍ ،

وكهس بن طلق الصريمي فقتلاه ، وجعلا دراهم كانت معه في بطنه ، ودفناه في ناحية الدار ، وحكنا آثار الدم ، وغلينا فرسه في الليل ، فأصيب من الغد في المريد ، وتحس عنه الباهليون فلم يروا له أثرا ، فاتهموا به بني سدوس ، فاستعدوا عليهم السلطان ، وجعل السدوسيون يحلفون ، فتحامل ابن زياد مع الباهليين ، فأخذ من السدوسيين أربع ديات ، وقال : ما أدري ما أصنع هؤلاء الخوارج ؟ كلها أمرت بقتل رجل منهم اغتالوا قاتله فلم يعلم بمكانه ، حتى خرج مرداس . فلما وافقهم ابن زرة الكلابي صاح بهم حريث ابن جمل : أهنا من باهلة أحد ؟ قالوا نعم ، قال : يا أعداء الله ! اخذتم بالمثل أربع ديات وأنا قاتله وجعلت دراهم كانت معه في بطنه ، وهو في موضع كذا مدفون ، فلما انهزموا صاروا إلى الدار ، فأصابوا أسلامه والدرهم ، ففي ذلك يقول أبو الأسود الدؤلي :

آليت لا أغدو إلى رب لقعة أساومه حتى يعود المثلم
ثم خرجت خوارج لا ذكر لهم ، كلهم قتل ، حتى انتهى الأمر إلى الأزارقة .

* * *

ومن هاهنا افترت الخوارج فصارت على أربعة أضرب :
الإباضية ، وهم أصحاب عبد الله بن إباض .
والصفرية ، واختلفوا في تسميتهم ، فقال قوم : سُموا بابن صفار ، وقال آخرون ، وأكثر المتكلمين عليه : هم قوم نهكتم العبادة فاصفرت وجوههم .
ومنهم البهسية ، وهم أصحاب أبي بهس .
ومنهم الأزارقة ، وهم أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي ، وكانوا قبل على رأي

واحد ، لا يختلفون إلا في الشيء الشاذ من الفروع ، كما قال صخر بن عروة :
إني كرهت قتال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لسابقته وقربته ، فأما الآن
فلا يسعني إلا الخروج . وكان اعتزل عبد الله بن وهب يوم النهر ، فضلته
الخوارج بامتناعه من قتال علي .

* * *

فكان أول أمرهم الذي نستأفه : أن جماعة من الخوارج ، منهم نخدة
ابن عامر الحنفي ، عزموا على أن يقصدوا مكة ، لما توجه مسلم بن عقبة
يريد المدينة لوقعة الحرّة ، فقالوا : هذا ينصرف عن المدينة إلى مكة ، ويجب
علينا أن نمنع حرم الله منه ، ونمتحن ابن الزبير ، فإن كان على رأينا بايعناه ،
فمضوا لذلك .

فكان أول أمرهم : أن أبا الوازع الراسبي ، وكان من مجتهد الخوارج
كان يذمر نفسه ويلومها على القعود ، وكان شاعراً ، وكان يفعل ذلك بأصحابه ،
فأتى نافع بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه ، يصف لهم جور السلطان ،
وكان ذا لسان غضبي ، واحتجاج وصبر على المنازعة ، فأنه أبو الوازع ، فقال :
يا نافع ! لقد أعطيت لساناً صارماً ، وقلماً كثيراً ، فتوددت أن صرامة
لسانك كانت لقلبك ، وكلال قلبك كان للسانك ، أتحض على الحق وتقعده
عنه ، وتقبح الباطل وتقيم عليه ؟ ! فقال : إلى أن تجمع من أصحابك من
تكفي به عدوك ، فقال أبو الوازع :

لسانك لا تكفي به القوم إنما تنال بكفيك النجاة من الكرب
فجاهد أناساً حاربوا الله واصطبروا عسى الله أن يخزي غوي بني حرب

ثم قال : والله لا ألومك وتقسي ألوم ، ولأغدؤن غدوة لا أنثني بعدها أبداً ،
ثم مضى فاشترى سيفاً ، وأتى صيقلًا كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم ،
فشاوره في السيف فحمدّه ، فقال : اشحذه ، فشحذه ، حتى إذا رضى حكمه
وتخبط به الصيقل ، وحمل على الناس فتهاربوا منه ، حتى أتى مقبرة بني

يشكر ، قدفع عليه وجل حائط السيرة فكرهت ذلك بنو يشكر ، خوفاً أن
تجعل الحوارج قبره مهاجراً ، فلما رأى ذلك نافع بن الأزرق وأصحابه جدوا ،
وخرج في ذلك جماعة ، فكان ممن خرج عيسى بن قاتك الشاعر الخطي ، من
تيم اللات بن ثعلبة ، ومقتله بعد خروج الأزارقة .

فضى نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مكة ، لينعوا
الحرم من جيش مسلم بن عقبة ، فلما صاروا إلى ابن الزبير عرفوه فأنقذهم ،
فاظهر لهم أنه على رأيهم ، حتى أتاها مسلم بن عقبة وأهل الشام ، فدافعهم إلى
أن يأتي رأي يزيد بن معاوية ، ولم يبايعوا ابن الزبير ، ثم تناظروا فيما بينهم ،
فقالوا : ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر ،
وبريء من عثمان وعلي ، وكفر أباه وطلحة ، وبايعناه ، وإن تكن
الأخرى ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يجدي علينا ، فدخلوا على ابن الزبير ،
وهو مشدول ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن
كنت على الصواب بايعناك ، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق ، ما نقول
في الشيخين ؟ قال : خيراً ، قالوا : فما تقول في عثمان ، الذي أحمى الحمى ،
وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، واوطأ آل أبي
معيط رقاب الناس وآثرهم بغير المسلمين ؟ وفي الذي بعده الذي حكم في
دين الله الرجال ، وأقام على ذلك غير قائب ولا نادم ؟ وفي إبيك وصاحبه ،
وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضي ، لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا ، بعرض
من اعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاتل ، وقد أمرها الله وصاحبها أن يقرن
في بيوتهن ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة ، فإن انت قلت كما نقول
فلك الزلفة عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإن
أبيت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب إبيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان ،
والتولي في السنين الست التي احللت دمه ، ونقضت عهده ، وأفسدت إمامته ،
خذلك الله وانتصر منك بأيدينا !! فقال ابن الزبير : إن الله أمر — وله العزة —

والقدرة - في مخاطبة أكثر الكافرين واعتى العتاة بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى ولأخيه - صلى الله عليهما - في فرعون (فقلوا له قولا لنا لعله يتذكر او يخشى) وقال رسول الله ﷺ : « لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » ، فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاد في المحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة وابي ان تقولوا : اتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلاً في غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحتفظوني بسب أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون ان الله جلّ وعزّ قال للمؤمن في أبيه : (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعها ، وصاحبها في الدنيا معرّوفاً) وقال جل ثناؤه : (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذي دعوتهم إليه أمر له ما بعده ، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح ، ولعمري إن ذلك لأحري بقطع الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فروحوا إلي من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله . فلما كانت العشي راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة قال : هذا خروج منابذ لكم ، فجلس على رفع من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه محمد ﷺ ، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلين بالسنين التي أنكروا سيرته فيها ، فجعلها كالماضية ، وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله ﷺ ، وذكر الحمي وما كان فيه من الصلاح وأن القوم استعبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أولاً مصياً ، ثم أعطيهم بعد محسناً ، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه بعد أن ضمن لهم العتبي ، ثم كتب لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفعوا الكتاب إليه ، فحلف أنه لم يكتبه ولم يأمر به ، وقد أمر بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقه ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ﷺ ومكانه

من الإمامة ، وأن يعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه ، وعتان الرجل الذي لزمته عين لو حلف عليها حلف على حق فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض » فعتان أمير المؤمنين كصاحبه ، وأنا ولي ولية ، وعدو عدو ، وابي وصاحبه صاحب رسول الله ﷺ ، ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة : « سبته إلى الجنة » ، وقال : « أوجب طلحة » ، وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : « ذاك يوم كل أو جله لطلحة » ، والزبير حواري رسول الله وصفوته ، وقد ذكر أنها في الجنة ، وقال جل وعز : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) وما أخبرنا بعد أنه مخط عليهم ، فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهل ذلك هم ، وإن يكن زلة ففي عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم ﷺ ، ومهما ذكرتموها به فقد بدأتم بأمكم عائشة رضي الله عنها ، فإن أبي آبي ان تكون له أمّاً نبذ اسم الإيمان عنه ، قال الله جل ذكره وقوله الحق : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه .



وكان سبب وضع الحرب أوزارها بين ابن الزبير وبين أهل الشام — بعد أن كان حنين بن ميمر قد حصر ابن الزبير — أنه أقام موت يزيد بن معاوية فتوابع الناس ، وقد كان أهل الشام ضجروا من المقام على ابن الزبير ، وحنقت الحوارج في قتالهم ، ففي ذلك يقول رجل من قضاعة :

يا صاحبي ارتحلا ثم امسا لا تحبسا لدى الحنين محبسا

إن لدى الأركان مؤساً

(قال الأخفش : حظي « بأأ أبوؤسا » .)

وبارقات يختلن الأتفا إذا التقى حكم يوماً كلاً

قوله : « ثم امسا » يريد : تخلصا تخلصاً سهلاً . « وكلس » أي

حمل وجد .

ولما سمع ابن الزبير للخوارج في القولِ واظهر انه منهم قال له رجل
يقال له قيس بن همام من رهط الفرزدق :

يا ابن الزبير اتهمى عصبة قتلوا ظلماً اباك ولما تنزع الشكك
ضحوا بعثمان يوم النحر ضاحية ما اعظم الحرمة العظمى التي انتهكوا
فقال ابن الزبير : لو شايعتني الترك والدليم على قتال اهل الشام لشايعتها
« الشكك » جمع « شككة » وهي السلاح ، قال الشاعر :
ومدججاً يسعى بشكته محمرة عيناه كالكلب

★ ★ ★

ففرقت الخوارج عن ابن الزبير لما تولى عثمان ، فصارت طائفة إلى البصرة ،
وطائفة إلى اليمامة ، وكان رجاء النُميري هو الذي كانت جمعهم للمدافعة عن
الحرم ، فكان فيمن صار إلى البصرة نافع بن الأزرق الحنفي ، وبنو الماحوز
السلطيون ، ورئيسهم حسان بن مجزج ، فلما صاروا إلى البصرة نظروا في
أمرهم فأمرؤا عليهم نافعاً .

ويروى : ان ابا الجليل الشكري قال لنافع يوماً : يا نافع ! إن لجهم
سبعة ابواب ، وإن أشدها حرّاً للباب الذي أعده للخوارج ، فإن قدرت
ان لا تكون منهم فافعل ، فأجمع القوم على الخروج ، فمضى بهم نافع إلى
الأهواز في سنة اربع وستين ، فأقاموا بها ، لا يهيجون أحداً ، ويناضرون الناس .

★ ★ ★

وكان سبب خروجهم إلى الأهواز انه لما مات يزيد بايع اهل البصرة عبيد
الله بن زياد ، وكان في السجن يومئذ اربع مائة رجل من الخوارج ، وضعف
أمر ابن زياد ، فكلم فيهم ، فأطلقهم ، فأفسدوا البيعة عليه ، وفشوا في الناس ،
يدعون إلى محاربة السلطان ، ويظهرون مأم عليه ، حتى اضطرب على عبيد الله
أمره ، فتحول عن دار الإمارة إلى الأزد ، ونشأت الحرب بسببه بين الأزد

وربيعة وبين بني تميم ، فاعتزلهم الحوارج إلا نفرأ منهم من بني تميم ، معهم عيسى
ابن طلق الصريمي أخو كهس ، فانهم اعانوا قومهم ، فكان عيسى الطعان في
سعد ، والرباب في القلب بجذاء الأزدي ، وكلت حارثة بن بدر اليربوعي في
حنظلة بجذاء بكر بن وائل ، وفي ذلك يقول حارثة بن بدر للأحنف ، وهو
صخر بن قيس :

سيكفيك عيسى أخو كهس موافقة الأزدي بالمرئيد
وتكفيك عمرو على رسلها لكيز بن أفضى وما عدوا

« لكيز » هو عبد القيس .

وتكفيك بكراً إذا أقبلت بضرب يشيب له الأمر
فلما قتل مسعود بن عمرو المعني ، وتكاف الناس أقام نافع بن الأزرق
بموضع بالأهواز ، ولم يعد إلى البصرة ، وطردها عمال السلطان عنها ،
ووجبوا الفية .

ولم يزالوا على رأي واحد ، يتولون أهل النهر ويرداساً ومن خرج معه ،
حتى جاء موئى لبني هاشم إلى نافع ، فقال له : إن أطفال المشركين في النار ،
وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال ، قال له نافع :
كفرت وأدلت بنفسك ، قال له : إن لم آتتك بهذا من كتاب الله فاقتلني :
(قال نوح رب لا تذرنى على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرنهم
يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ،
فشهد نافع أنهم جميعاً في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر إلا
من أظهر إيمانه ، ولا يحمل أكل ذبائحهم ، ولا تناكحهم ، ولا توارثهم ، ومتى
جاء منهم جاء فعلياً أن تمتحنه ، وهم ككفار العرب ، لا تقبل منهم إلا الإسلام
أو السيف ، والقعد بمنزلتهم ، والتقية لا تحمل ، فان الله تعالى يقول : (إذا
فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وقال عز وجل فيمن

كان على خلافهم : (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) . فنفر جماعة من الخوارج عنه ، منهم نجدة بن عامر ، واحتج عليه بقول الله عز وجل : (إلا أن تتقوا منهم تقاة) ويقول عز وجل : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) فالتقعد منا ، والجهد إذا أمكن أفضل ، لقوله جل وعز : (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) . ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة وتفرقوا في البلدان .

فلما تتابع نافع في رأيه وخالف أصحابه ، وكان أبو طالوت سالم بن مطر بالحضارم في جماعة قد بايعوه ، فلما انخزل نجدة خلعوا أبا طالوت ، وصاروا إلى نجدة فبايعوه ، ولقي نجدة وأصحابه قوماً من الخوارج بالعرمة ، والعرمة كالسكر ، وجمعها عرم ، وفي القرآن المجيد : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) وقال النابغة الجعدي :

من سبأ الخاضرين مأرب إذ ينون من دثون سيله العرما
فقال لهم أصحاب نجدة : إن نافعاً قد كفر القعد ورأى الاستعراض ، وقتل الأطفال ، فانصرفوا مع نجدة ، فلما صار باليمامة كتب إلى نافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالإخ البر ، لاتأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذكر قولك : لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ؟ فلما شربت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق فصة ، وركبت مره ، تجرد لك الشيطان ، ولم يكن أحد ثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك فاستأثرت واستهواك واستغواك وأغواك ، فغويت ، فأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ووعدته المذوق : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) ثم سماهم أحسن الاسماء فقال : (ما على الحسين

من سبيل) ثم استعملت قتل الاطفال ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم ، وقال الله عز ذكره : (ولا تروا وازرةً ووزراً أخرى) وقال في القعد خيراً ، وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه ، أوما سمعت قوله عز وجل : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر) فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدي الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدي الأمانات إلى أهلها ، فاتق الله وانظر نفسك ، واتق يوماً (لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازر عن والده شيئاً) فإن الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل والسلام .

فكتب إليه نافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد اتاني كتابك تعظني فيه وتذكرني وتنصح لي وتزجرني ؛ وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسأل الله جل وعز أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وعبت علي ما دنت به من إكفار القعد وقتل الاطفال واستحلال الامانة ؛ فسأفرك لك لم ذلك إن شاء الله : اما هؤلاء القعد فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله ﷺ ، لانهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الهرب سبيلاً ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فقهوا في الدين ، وقرؤا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا : (كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ) فقل لهم : (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقال : (فرح الخلفون بقعدهم خلاف رسول الله) وقال : (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) فخبّر بتعذيرهم ، وانهم كذبوا الله ورسوله ، وقال : (سيصيب

الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ) فانظر إلى اسمائهم وسماتهم . واما امر الاطفال فان نبي الله نوحاً عليه السلام كان اعلم بالله - يأنجده - مني ومنك ، فقال : (رب لا تنذرني على الارض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، فساهم بالكفر وهم اطفال ، وقبل ان يولدوا ، فكيف كان ذلك في قوم نوح ولا نكون نقوله في قومنا ؟! والله يقول : (اكفاركم خير من أولئكم ، ام لكم براعة في الزور) وهؤلاء كمشركي العرب ، لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الاسلام . واما استغلال امانات من خالفنا فان الله عز وجل احل لنا اموالهم ، كما احل لنا دماءهم ، فدمائهم حلالٌ مطلق ، واموالهم فيءٌ للمسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عندر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاتنا ، والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقنا ومقاتلتنا ، والسلام على من اقر بالحق وعمل به .



وكتب نافع إلى عبد الله بن الزبير يدعو به إلى امره :

اما بعد ، فاني أحتذر من الله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه) فاتق الله ربك ، ولا تتول الظالمين ، فإن الله يقول : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وقد حضرت عثمان يوم قتل ، فلعمري لئن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه ، ولئن كان قاتلوه مهتدين - وإنهم لمهتدون - لقد كفر من يتولاه وينصره وبعضه ، ولقد علمت ان اباك وطلحة وعلياً كانوا اسد الناس عليه ، وكانوا في امره من بين قاتل وخاذل ، وانت تتولى اباك وطلحة وعثمان ، وكيف ولاية قاتل متعمد ومقتول في دين واحد ؟! ولقد ملك عليٌ بعده فتى الشبهات ، واقام الحدود ، واجرى الاحكام بجاريها ، واعطى الأمور

حقائقها ، فيما عليه وله ، فبايعه ابوك وطلحة ، ثم خلعه ظالمين له ، وإث
القول فيك وفيها لكما قال ابن عباس : إن يكن علي في وقت معصيتكم
ومحاربتكم له كان مؤمناً أما لقد كفرتم بقتال المؤمنين وائمة العدل ، وإن كان
كافراً كما زعمتم وفي الحكم جائراً لقد بؤتم بغضب من الله لفراركم من الزحف ،
ولقد كنت له عدوّاً ، ولسيرته عائباً ، فكيف توليته بعد موته ؟! فاتق الله
فإنه يقول : (ومن يتولهم منهم فإنه منهم) .

• • •

وكتب نافع إلى من بالبصرة من الحكممة :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن
إلا وأنتم مسلمون ، والله إنكم لتعلمون ان الشريعة واحدة ، والدين واحد ،
فقيم المقام بين اظهر الكفار ، ترون الظلم ليلاً ونهاراً ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد فقال :
(وقاتلوا المشركين كافة) ولم يجعل لكم في التخلّف عذراً في حال من
الحال ، فقال : (انفروا خفافاً وثقالاً) . وإنما عذر الضعفاء والمرضى والذين
لا يجدون ما ينفقون ومن كانت إقامته لعله ، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدن
فقال : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل
الله) . فلا تغترّوا ولا تطمئنّوا إلى الدنيا ، فإنها غرارة مكاره ، لذتها نافذة ،
ونعمتها بائدة ، حفت بالشهوات اغتراراً ، واظهرت حبرة ، واضمرت عبدة ،
فليس آكل منها أكلة تسره ، ولا شارب شرّبة تؤثقه ؛ إلا دنا بها
درجة إلى اجله ، وتباعد بها مسافة من امله ، وإنما جعلها الله داراً لمن تزود
منها إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فلن يرضى بها حازم داراً ، ولا حلیم
بها قراراً ، فاتقوا الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) والسلام على من
اتبع الهدى .

فورد كتابه عليهم ، وفي القوم يومئذ ابو بهس هيصم بن جابر الضبي ،
وعبد الله بن إباح المري ، من بني مرة بن عبيد ، فأقبل ابو بهس على ابن
إباح فقال : إن نافعاً غلاً فكفر ، وإنك قصرت فكفرت ! تزعم ان من
خالفنا ليس بمشرك ، وإنما هم كفار النعم ؛ لتمسكهم بالكتاب ، وإقرارهم
بالرسول ، وتزعم أن مناكحهم ومواريتهم والإقامة فيهم حلٌ طلقٌ ؟ وأنا أقول :
إن أعدائنا كأعداء رسول الله ﷺ ، تحلُّ لنا الإقامة فيهم ، كما فعل المسلمون
في إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجري فيها ، وأزعم أن مناكحهم ومواريتهم
تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام ، وأن حكمهم عند الله حكم المشركين !!

* * *

فصاروا في هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع في البراءة والاستعراض
واستحلال الأمانة وقتل الأطفال . وقول أبي بهس الذي ذكرناه . وقول عبد
الله بن إباح . وهو أقرب الاقاويل إلى السنة من أقاويل الضلال . والصفرية
والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن إباح . وقد قال ابن إباح ما ذكرنا
من مقالته .

وأنا أقول : ان عدونا كعدو رسول الله ﷺ ، ولكني لا أحرّم مناكحهم
ومواريتهم ، لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول عليه السلام ، فأرى
معهم دعوة المسلمين تجمعهم ، وأراهم كفاراً للنعم . وقالت الصفرية ألين من هذا
القول في أمر القعد ، حتى صار عامتهم قعداً . واختلفوا فيهم ، وقد ذكرنا
ذلك . فقال قوم : سمّوا صفرية ، لأنهم أصحاب ابن صفار ، وقال قوم :
إنما سمّوا بصفرة عاتهم ، وتصديق ذلك قول ابن عاصم الليثي ، وكان يرى رأي
الخوارج ، فتركه وصار مرجئاً :

فأرقت نجدة والذين تزوّقوا وابن الزبير وشيعة الكذاب

والصُّفْرَ الآذَانِ الَّذِينَ تَحْتَرُّوا دِينًا بِلَا ثِقَةٍ وَلَا بَكْتَابٍ

خَفَّفَ الْهَمْزَةَ مِنْ «الْآذَانِ» وَلَوْلَا ذَلِكَ لَانْكَسَرَ الشَّعْرُ .

وقال أبو بَيْهَسٍ : الدَّارُ دَارُ كُفْرٍ ، والاستعراضُ فيها جائِزٌ ، وإنْ أُصِيبَ مِنَ الْأَطْفَالِ فَلَا حَرَجَ . إِلَى هُنَا انْتَهَى الْمَقَالَةُ .

* * *

وتفرقتِ الحَوَارِجُ عَلَى الْأَضْرُبِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا ، وَأَقَامَ نَافِعٌ بِالْأَهْوَازِ يَعْتَرِضُ النَّاسَ وَيَقْتُلُ الْأَطْفَالَ ، فَإِذَا أُجِيبَ إِلَى الْمَقَالَةِ جَبَا الْحَرَجَ ، وَقَسَا مَحَالَّهُ فِي السَّوَادِ ، فَارْتَاعَ لَذَلِكَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَى الْأَحْنَفِ ابْنِ قَيْسٍ ، فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَقَالُوا : لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعَدُوِّ إِلَّا لَيْتَانِ ، وَسِيرَتُهُمْ مَا تَرَى ، فَقَالَ الْأَحْنَفُ : إِنَّ فَعْلَهُمْ فِي مَصْرِكُمْ - إِنْ ظَفِرُوا بِهِ - كَفَعْلِهِمْ فِي سَوَادِكُمْ ، فَجِدُّوْا فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ عَشْرَةُ آلَافٍ رَجُلٍ ، فَاتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَهُوَ بَبَّةٌ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُؤَمِّرَ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَارَ لَهُمْ ابْنَ عُبَيْسٍ بْنِ كُرَيْزٍ ، وَكَانَ دِينًا شَجَاعًا ، فَأَمَرَهُ عَلَيْهِمْ وَشِيعَهُ ، فَلَمَّا نَفَذَ مِنْ جِسْرِ الْبَصْرَةِ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : إِنِّي مَا خَرَجْتُ لَامْتِيَارَ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ ، وَإِنِّي لِأَحَارِبُ قَوْمًا إِنْ ظَفِرْتُ بِهِمْ فَمَا وَرَاءَهُمْ إِلَّا سَيُوفُهُمْ وَرِمَاحُهُمْ ، فَمَنْ كَانَ شَأْنُهُ الْجِهَادَ فَلْيَنْهَضْ ، وَمَنْ أَحَبَّ الْحَيَاةَ فَلْيَرْجِعْ ، فَرَجَعَ ثَقَرٌ يَسِيرٌ ، وَمَضَى الْبَاقُونَ مَعَهُ . فَلَمَّا صَارُوا بِدُوْلَابٍ خَرَجَ إِلَيْهِمْ نَافِعٌ ، فَاقْتَلَوْا قَتَالًا شَدِيدًا ، حَتَّى تَكَثَّرَتِ الرِّمَاحُ ، وَعَثْقِرَتِ الْحَيْلُ ؛ وَكَثُرَتِ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ ، وَتَضَارَبُوا بِالسُّيُوفِ وَالْعَمَدِ ، فَقُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ ابْنُ عُبَيْسٍ وَنَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ ، وَكَانَ ابْنُ عُبَيْسٍ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : إِنْ أُصِيبْتُ فَأَمِيرُكُمْ الرَّبِيعُ بْنُ عَمْرِو الْأَجْدَمِ الْغُدَّانِيُّ ، فَلَمَّا أُصِيبَ ابْنُ عُبَيْسٍ أَخَذَ الرَّبِيعُ الرَّايَةَ ، وَكَانَ نَافِعٌ قَدْ اسْتَغْلَفَ عِيْدَ اللَّهِ بْنِ بَشِيرٍ بْنِ الْمَاحِزِ السُّلَيْطِيِّ ، فَكَانَ الرَّيْثَانُ مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ :

رئيس المسلمين من بني غداة بن يربوع ، ورئيس الحوارج من بني سليط بن يربوع
فاقتلوا قتالا شديداً ، وادّعى قتل نافع سلامة الباهلي ، وقال : لما قتله وكنت
على برذونٍ وردٍ إذا برجل على فرسٍ وأنا واقفٌ في خمسٍ قيسٍ ينادي :
يا صاحب الوردِ ! هلم إلى المبارزة ، فوقفتُ في خمسٍ بني تميمٍ فإذا به يعرضها
عليّ ، وجعلتُ أتقلُّ من خمسٍ إلى خمسٍ ، وليس يزايلي ، فصرتُ إلى رحلي ، ثم
رجعتُ فرآني فدعاني إلى المبارزة ، فلما أكثر خرجت إليه فاختلفنا ضربتين ،
فضربته فضرعت ، فزلتُ لسلبه وأخذ رأسه ، فإذا امرأةٌ قد رأتني حين قتلت
نافعاً ، فخرجت لتتار به ، فلم يزل الربيع الأجدم يقاتلهم نيفاً وعشرين يوماً ،
حتى قال يوماً : أنا مقتولٌ لأحالة ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنني رأيت البارحة
كان يدي التي أصيبت بكابلٍ انحطت من السماء فاستشلتني ، فلما كان الغد قاتل
إلى الليل ، ثم غاداهم فقتل ، فتدافع أهل البصرة الراية حتى خافوا العطب ،
إذ لم يكن لهم رئيسٌ ، ثم أجمعوا على الجعاج بن بابٍ الحميري ، فأبأها ، فقبل
له : ألا ترى أن رؤساء العرب بالحضرة ، وقد اختاروك من بينهم ؟! فقال :
مشؤومةٌ ، ما يأخذها أحدٌ إلا قتل ، ثم أخذها ، فلم يزل يقاتل الحوارج
بدؤلاب ، والحوارج أعدت بالآلات والأدروع والجواشن ، فالتقى الجعاج بن
بابٍ وعمران بن الحرث الراسبي ، وذلك بعد أن اقتلوا زهاء شهرٍ ، فاختلفا
ضربتين ، فسقطا ميتين ، فقالت أم عمران توثيه :

الله أبعد عمراناً وطهره وكان عمرانٌ يدعو الله في السحر
يدعوه مرأً وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدي ملحادةٍ غدَرِ
ولي صحابه عن حرٍّ ملحمةٍ وشد عمران كالضَرْغامة المصْرِ

قول الربيع « استشلتني » أي : أخذتني إليها واستقدتني . يقال « استشلاه
واشلاه » وفي الحديث « أن السارق إذا قطع سبقة يده إلى النار ، فإن تاب
استشلاه » . وقال رؤبة :

إنَّ سليمان اشتلتا ابن علي . وقول الناس « أشلئتُ كلبِي ، أي أغريتهُ بالصيد ، خطأ » ، إنما يقال « آسدتهُ » . و« أشلئتهُ » دعوتهُ . .

وقولها « بيدي ملحادةٍ » « مفعالٌ » من الإلحادِ ، كما يقول : رجل معطاءٌ يافئ ، ومحسانٌ ، ومكرامٌ ، وأدخلت الماءُ للمبالغة ، وكما تدخلُ في روايةٍ وعلامةٍ ونسابةٍ .

« وغدر » « فُعلٌ » من الغدر ، وفعلٌ بابٌ تذكره في عقب هذه القصة ، إذا فرغنا من خبر هذه الواقعة .

و « الضَّرْغامة » من أسماء الأسدِ .

و « المَصْرُ » الذي يهصر كل شيءٍ ، أي يثنيه ، قال امرؤُ القيس :

فلما تنازعنا الحديثَ وأسمحتْ هصرت بغصنٍ ذي شماريخ ميال

★ ★ ★

ولذكرنا الصُّفْرية والأزارقة والبيهية والإباضية تفسيرٌ ، لمَ نسب إلى ابن الأزرق بالأزارقة ، وإلى أبي بيسٍ بالكنية المضاف إليها ، ونسبَ إلى صفرٍ ولم ينسب إلى واحدٍ ، ونسب إلى ابن إباضٍ فجعل النسبُ إلى أبيه ؟ وهذا تذكره بعد باب « فعلٍ » ، إن شاء الله .

قال أبو العباس : ومما قيلَ من الشعر في يوم دولاب قول قطري :

لعمركَ إني في الحياة لزاهدٌ	وفي العيش نالم ألقَ أم حكيم
من الحفرات البيض لم يُر مثلهما	شفاءً لذي بثٍ ولا لسقيم
لعمركَ إني يومَ الطمِّ وجهها	على نائبات الدهر جدُّ لثيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرتُ	طعان قتيَّ في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائلٍ	وعُجنا صدور الحيل نحو تميم
وكان لعبدِ القيسِ أولُ جدِّها	وأحلافها من بحصبٍ وسليم

وظلت شيوخُ الأزد في حومة الوغى تعوم وظلنا في الجلالِ نعوم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً يبيعُ دماً من فائظٍ وكليم
وضاربةٍ خدّاً كريماً على فتى أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولابٍ ولم تكِ موطناً له أرض دولابٍ ودير حمير
فلو شهدتا يوم ذاك وخيلنا تبيع من الكفار كل حريم
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسهم بجناتٍ عدنٍ عنده ونعيم

قوله « ولو شهدتا يوم دولاب » فلم ينصرف « دولاب » وإنما ذاك لأنه أراد البلدة ، و « دولاب » أعجميٌّ معربٌ . وكلُّ ما كان من الأسماء الأعجمية نكرة بغير الألف واللام فإذا دخلته الألف واللام فقد صار معرباً ، وصار على قياس الأسماء العربية ، لا يمنع من الصرف إلا ما يمنع العربيّ ، فدولاب « فوعال » مثلُ طومارٍ وسولافٍ . وكلُّ شيءٍ لا يخصُّ واحداً من الجنس من غيره فهو نكرةٌ نحو رجلٍ ، لأن هذا الاسم يلحق كلَّ ما كان على بنيته ، وكذلك حملٌ وجبلٌ وما أشبه ذلك . فإن وقع الاسم في كلام العجم معرفةً فلا سبيل إلى إدخال الألف واللام عليه ، لأنه معرفةٌ ، فلا معنى لتعريف آخر فيه ، فذلك غير منصرفٍ ، نحو « فرعون » و « هامان » و « قارون » وكذلك « إسحق » و « إبراهيم » و « يعقوب » .

وقوله « غداة طفت علماء بكر بن وائل » وهو يريد : على الماء ، فإن العرب إذا التقت في مثل هذا الموضع لآمان استجازوا حذف أحدهما استثقلاً للتضعيف ، لأن ما بقي دليلٌ على ما حذف ، يقولون « علماء بنو فلان » كما قال الفرزدق :

وما سبق القيسيُّ من ضعف حيلةٍ ولكن طفت علماء قلقة خالد

وكذلك كلُّ اسمٍ من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قولك « بنو » لقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلانٌ من « بلحرت » و « بلعنبر » و « بلهجم » .

وقال آخر من الخواارج :

يرى من جاء ينظر من دجيل
وقال رجل منهم :

شمت ابن بدر والحواث جمة
والموت حتم لا محالة واقع
فلئن أمير المؤمنين أصابه
نصب بعد « إن » ، لان حرف الجزاء للفعل ، فإنما أراد : فلئن أصاب أمير
المؤمنين ، فلما حذف هذا الفعل وأضمر ، ذكر « أصابه » ليدل عليه ، ومثله قول
النمر بن تولب :

لا تجزعي ان متفساً أهلكته
وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغت
لان « اذا » لا يليها الا الفعل ، وهي به أولى .
هذا باب « فَعَلَ »

اعلم أن كل اسم على مثال « فعل » فهو مصروف في المعرفة والنكرة ، إذا كان
اسماً أصلياً أو نعتاً ، فالأسماء نحو : صرد ونغر وجعل ، وكذلك إن كانت
جمعاً ، نحو : ظلم وغرف . وإن سميت بشيء من هذا رجلاً انصرف في المعرفة
والنكرة ، وأما النعت فنحو رجل حطم ، كما قال :

قد لقيها الليل بسواق حطم .

وكذلك مالٌ لبد ، وهو الكثير ، من قوله جلّ جلاله : (أهلكنا
مالاً لبداً) .

فإن كان الاسم على « فَعَلَ » معدولاً عن « فاعل » ، لم ينصرف إذا كان
اسم رجل في المعرفة ، وينصرف في النكرة ، وذلك نحو : همر وقم ، لأنه
معدول عن عامر ، وهو الاسم الجاري على الفعل ، فهذا بما معرفته قبل نكرته ،

فإذا أُريد به منعب المعرفة جاز أن تبنيه في النداء من كل فعلٍ (فَعَلَ) ،
لأن المنادى مشار إليه ، وذلك قولك : يافسق ، وياخبث ، تريد : يافاسق
وياخبث .

وإنما قالت « بيدي ملحادة غدر » في غير النداء للضرورة ، فنقلته معرفة من
النداء ، ثم جعلته نكرةً لخروجه عن الإشارة ، فنعتت به « ملحادة » كما
قال الخطيئة :

أجول ما أجول ثم آوي إلى بيتٍ قعده لكاع

وهذا لا يقع إلا في النداء ، ولكن للشاعر نقله نكرةً ونقله معرفةً ، على
حد ما كان له في النداء . فيلحق قولها « غدر » بقوله رجلٌ حطمٌ ، ومالٌ لبدٌ ،
وما أشبه . و « فعال » في المؤنث بمنزلة « فَعَلَ » في المذكر ، ولو سميت
رجلاً « حطماً » لصرفته ، من قولك : هذا سائقٌ حطمٌ ، لأنه قد وقع نكرةً
غير معدولٍ ، فهو في النعوت بمنزلة « صردٍ » في الأسماء .

هذا باب النسب إلى المضاف

اعلم أنك إذا نسبت إلى علمٍ مضافٍ فالوجه أن تنسب إلى الاسم الأول ،
وذلك قولك في عبد القيس « عدي » وكذلك في عبد الله بن دارم . فإن
كان الاسم الثاني أشهر من الأول جاز النسب إليه ، لتلايق في النسب التباس
من اسم باسم ، وذلك قولك في النسب إلى عبد مناف « منافي » وإلى أبي
بكر بن كلاب « بكري » . وقد يجوز ، وهو قليل ، أن تبني له من الاسمين
اسماً على مثال الأربعة لينتظم النسب ، وذلك قولك في النسب إلى عبد الدار بن
قصي « عديري » وفي النسب إلى عبد القيس « عقيسي » .

فإن كان المضاف غير علمٍ فالنسب إلى الثاني على كل حال ، وذلك قولك
في النسب إلى ابن الزبير « زبيري » لأن ابن الزبير إنما صار معرفةً بالزبير ،

وكذلك النسب إلى ابن رالان د رالاني ، . فذلك قالوا في النسب إلى ابن الأزرق د أزرق ، وإلى أبي بهس د بهسي ، .

فأما قولهم د صفري ، فإنما أرادوا الصفر الألوان ، فنسبوا إلى الجماعة ، وحق الجماعة إذا نسب إليها أن يقع النسب إلى واحد ، كقولك د مهلي ، و د مسمعي ، ولكن جعلوا د صفراً ، اسماً للجماعة ، ثم نسبوا إليه ، ولم يقولوا د أصفري ، فينسب إلى واحد ، وإنما كان ذلك لأنهم جعلوا الصفر اسماً للجماعة ، كما تسمى القبيلة بالاسم الواحد ، ألا ترى أن النسب إلى الأنصار د أنصاري ، لأنه كان علماً للقبيلة ، وكذلك د مدائي ، . وتقول في النسب إلى الأبناء من بني سعد د أبناوي ، لأنه اسم للجماعة .

فأما قولهم د الأزارقة ، فهذا باب من النسب آخر ، وهو أن يسمى كل واحد منهم باسم الأب ، إذا كانوا إليه ينسبون ، ونظيره د المهالبة ، و د المسامعة ، و د المناذرة ، . ويقولون : جاءني النميرون والاشعرون ، جعل كل واحد منهم نميراً وأشعر ، فهذا يتصل في القبائل على ما ذكرت لك .

وقد تنسب الجماعة إلى الواحد على رأي أو دين ، فيكون له مثل نسب الولادة ، كما قالوا د أزرق ، لمن كان على رأي ابن الأزرق ، كما تقول قيمي وقبسي لمن ولده قيم وقيس ، ومن قرأ (سلام على إلياسين) فإنما يريد إلياس عليه السلام ومن كان على دينه ، كما قال :

قدني من نصر الحيين قد

يريد أبا خيب ومن معه .

وقد يجتمع الرجل مع الرجل في التثنية إذا كان مجازهما واحداً في أكثر الأمر على لفظ أحدهما ، فمن ذلك قولهم د العمران ، لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ومن ذلك قولهم د الحيين ، لعبد الله ومعصب ، وقد مضى تفسيره .

عاد اتقول في الخوارج

قال : والازارقة لا تكفر أحدًا من أهل مقاتلتها في دار الهجرة إلا القاتل رجلاً مسلماً ، فإنهم يقولون : المسلم حجة الله ، والقاتل قصد لقطع الحجة .

ويروى أن نافعاً مرّ بمالك بن مسمع في الحرب التي كانت بين الأزد وربيعة وبني تميم ، ونافع متقلد سيفاً ، فقام إليه مالك فضرب بيده إلى حمالة سيفه . وقال : ألا تتصرنا في حربنا هذه ؟ ! فقال : لا يحل لي ، قال : فما بال مؤمني بني تميم ينصرون كفارهم في هذه الحرب ؟ ! فأمسك عنه ، وخرج بعد ذلك بأيام إلى الأهواز ، فلما قتل من قتل من بنخازر من الخوارج في أيام ابن الماحوز كره بيته القتال ، وأقام حارث بن بدر الغداني يازاء الخوارج ، يناوشهم على غير ولاية ، وكان يقول : ماعندنا عند إخواننا من أهل البصرة إن وصل إليهم الخوارج ونحن دونهم ؟ فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير يخبرونه بقعود بيته ، ويسألونه أن يولي والياً ، فكتب إلى أنس بن مالك أن يصلي بالناس ، فصرى بهم أربعين يوماً ، وكتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر فولاه البصرة ، فلقبه الكتاب وهو يريد الحج ، وهو في بعض الطريق ، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، ولقيه حارثة فيمن كان معه ، وعبيد الله الماحوز في الخوارج بسوق الأهواز ، فلما عبروا إليهم دُجِلاً نهض إليهم الخوارج ، وذلك قيل الظُّهر ، فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أمّا الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة (بن بدر) : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم والله لا أتعدى حتى أُنَاجِزهم ! فقال له حارثة بن بدر : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف ، فابق على نفسك وجندك ، فقال : أبيت يا أهل العراق إلا تُجِنّا ! وأنت يا حارثة ! ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم ! يعرض له بالشراب ! فغضب حارثة فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس فأجلت الحرب عنه قتيلاً ، وانهمز الناس ، وأخذ حارثة

الراية ، وصاح بالناس : أنا حارثة بن بدر ، قتّاب إليه قومه ، فعبر بهم
 دجيّلاً ، وبلغ قلّ عثمان البصرة ، وخاف الناس الحوارج خوفاً شديداً ، وعزل
 ابن الزبير عمر بن عبيد الله ، وولى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، المعروف
 بالقباع ، أحد بني مخزوم ، وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي
 الشاعر ، فقدم البصرة ، فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد ، فأراد
 أن يوليه ، فقال له رجل من بكر بن وائل : إن حارثة ليس بذلك ، إنما
 هو صاحب شراب ، وفيه يقول رجل من قومه :

ألم تر أنّ حارثة بن بدر يُصلي وهو أكفر من حمار
 ألم تر أنّ للفتيان خطاً وحظك في البغايا والقمار

فكتب إليه القباع : تكفى حريمهم إن شاء الله . فأقام حارثة يدافعهم ، فقال
 شاعر من بني تميم يذكر عثمان بن عبيد الله بن معمر ومسلم بن عيسى وحارثة
 بن بدر :

مضى ابن عيسى صلياً غير عاجز وأعقبنا هذا الجعازي عثمان
 فأرعد من قبل اللقاء ابن معمر وأبرق والبرق الباني خوان
 فضحت قريشاً غثاً وسمينها وقيل بنو تميم بن مرة عزلان
 فلولا ابن بدر للعراقي لم يقم بما قام فيه للعراقي إنسان
 إذا قيل من حامي الحقيقة أومات إليه معد بالأنوف وقططان

* * *

قوله « فأرعد » زعم الأصمعي أنه خطأ ، وأن الكمية أخطأ في قوله :

أرعد وأبرق يابزبد فما وعيدك لي بضائر

وزعم أن هذا البيت الذي يروي للمهمل مضموعٌ محدث ، وهو قوله :

أنبضوا معجس النسي وأبرق نبا كما ترعد الفحول الفحولا

وأنه لا يقال إلا « وعد وبرق » إذا أوعد وتهدد ! وهو « يرعد ويرق » وكذا يقال « رعدت السماء وبرقت » و « أرعدنا نحن وأبرقنا » إذا دخلنا في الرعد والبرق ، قال الشاعر :

• فقل لأبي قابوس ما شئت فارعد •

وروى غير الأصمعي « أرعد وأبرق » على ضعف •

وقوله « والبرق الباني خوان » يريد : والبرق الباني يخون • وأجود النسب إلى اليمن « يمني » ويجوز « يمان » بتخفيف الياء ، وهو حسن ، وهو في أكثر الكلام ، تكون الألف عوضاً من إحدى الياءين ، ويجوز « يمانى » فاعلم ، تكون الألف زائدة وتشدد الياء ، قال العباس بن عبد المطلب :

ضربناهم ضرب الاحامس غدوة بكل يمانى إذا هز صمًا



ثم إن حارثة لما تفرق الناس عنه أقام بنهر تيرى ، فعبرت إليه الحوارج ، فهرب وأصحابه يرتكضون ، حتى أتى دُجَيْلاً ، فجلس في سفينة ، واتبعه جماعة من أصحابه ، فكانوا معه ، وأتاه رجل من بني تميم وعليه سلاحه ، والحوارج وراءه وقد توسط حارثة ، فصاح به : يا حارث ! ليس مثلي ضئيع ، فقال للملاح : قرب : ف قرب إلى جرف ، ولا فِرْضة هناك ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعاً . وأقام ابن الماحوز يجي كور الأهواز ثلاثة أشهر ، ثم وجه الزبير بن علي نحو البصرة فصج الناس إلى الأحنف ، فأتى القُبَاع فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيتنا ، فلم يبق إلا أن يحصرتا في بلدنا حتى نخوت هزلاً ، قال : فسموا رجلاً ، فقال الأحنف : الرأي لا يخيل ، ما أرى لما إلا المهلب بن أبي صفرة ، فقال : أوهذا رأي جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا إلي في غد ، وجاء الزبير حتى نزل الفرات ، وعقد الجسر لعبور إلى ناحية البصرة ، فخرج أكثر أهل

البصرة إليه ، وقد اجتمع للخوارج أهل الأهواز وكوثرها ، رغبة ورهبة ، فأتاه البصريون في السفن وعلى الدواب ورجالة ، فاسودت بهم الأرض ، فقال الزبير لما رآهم : أبي قومنا إلا كفراً ، فقطعوا الجسر وأقام الخوارج بالفرات بإزائهم ، واجتمع الناس عند القباع ، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً ، وكانوا ثلاث فرق ، فسمى قوم المهلب ، وسمى قوم مالك بن مسمع ، وسمى قوم زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي ، فصرفهم ، ثم اختبر ما عند مالك بن مسمع وزياد ، فوجدتهما متافلين عن ذلك ، وعاد إليه من أشار بها وقالوا : قد رجعنا عن رأينا ، مانوى لها إلا المهلب ، فوجه الحارث إليه فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيد ! قد ترى مارهقنا من هذا العدو ، وقد اجتمع أهل مصرك عليك ، وقال الأحنف : يا أبا سعيد ! إننا والله ما آثرناك بها ولكننا لم نر من يقوم لها مقامك ، فقال له الحارث - وأوماً إلى الأحنف - : إن هذا الشيخ لم يسمك إلا إشاراً للدن ، وكل من في مصرك ماذ عنه إليك ، راجع أن يكشف الله عز وجل هذه الغمة بك ، فقال المهلب : لاحول ولا قوة إلا بالله ، إني عند نفسي لدون ما وصفتم ، ولست آيأ مادعوتهم إليه على شروطٍ أشرطها ، قال الأحنف : قل ، قال : على أن أنتخب من أحببت ، قال : ذاك لك ، قال : ولي إمرة كل بلد أغلب عليه ، قال : وذاك لك ، قال : ولي فيء كل بلد أظفر به ، قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ، إنما هو فيء المسلمين ، فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوهم ، ولكن لك أن تعطي أصحابك من فيء كل بلد تغلب عليه ما شئت ، وتتفق منه ما شئت على محاربة عدوك ، فما فضل عنكم كان للمسلمين ، فقال المهلب : فمن لي بذلك ؟ قال الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهل مصرك ، قال : قد قبلت ، فكتبوا بذلك كتاباً ووضع على يدي الصلت بن حريث بن جابر الحنفي ، وانتخب المهلب من جميع الأخماس ، فبلغت نخبته اثني عشر ألفاً ، ونظروا ما في بيت المال ، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم ، فعجزت ، فبعث المهلب إلى التجار فقال : إن تجارتكم منذ حولٍ قد كسدت عليكم بانقطاع مواد الأهواز وفارس

عنكم ، فلم فبايعوني واخرجوا معي أوفكم إن شاء الله حقوقكم ، فتاجروه ،
 فأخذ من المال ما يصلح به عسكره ، واتخذ لأصحابه الخفاتين والرايات المحشوة
 بالصوف ، ثم نهض وأكثر أصحابه رجالة ، حتى إذا صار بجذاء القوم أمر
 بسفن فأحضرت وأصلحت ، فما ارتفع النهار حتى فرغ منها ، ثم أمر الناس
 بالعبور إلى الفرات ، وأمر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا
 الشاطئ خاضت إليهم الخوارج ، فحاربهم المغيرة ، ونضحهم بالسهام حتى تنحوا ،
 فصار هو وأصحابه على الشاطئ ، فحاربوهم فكشفوهم وشغلوهم ، حتى عقد الملب
 الجسر ، وعبر الخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم . ففي ذلك يقول
 شاعر من الأزد :

إنَّ العِراقَ وأهلَهُ لم يَجْهَرُوا مثلَ المِلبِ في الحروبِ فسلَّمُوا
 أمضى وأمينَ في اللقاءِ نقيَّةً وأقلَّ تهليلاً إذا ما أحْجَمُوا
 « التهليل » التَّكْذِيبُ والانْهْزام .

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العبدي ، وكان من فرسان بني
 تميم وشجعانهم ، فقال عطية :

يُدعى رجالٌ للعطاءِ وإنما يُدعى عطيةٌ للطعانِ الأجرد
 وقال الشاعر :

وما فارسٌ إلا عطيةٌ فوقه إذا الحربُ أبدت عن نواجزها الفما
 به هزمَ اللهُ الازارِقَ بعدما أباحوا من المصرين حِلاً ومحرماً

* * *

فأقام الملب أربعين يوماً يجبي الخراج بكنوز دجلة ، والخوارج بنهر تيرى ،
 والزيير بن علي منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماحوز ، فقتل الملب التجار
 وأعطى أصحابه ، فأسرع إليه الناس رغبة في مجاهدة الخوارج ، ولما في الغنائم
 وللتجارات ، فكان فيمن أثناه محمد بن واسع الأزدي وعبد الله بن رباح ومعاوية
 ابن قرّة المزني ، وكان يقول - يعني معاوية - : لو جاء الدَّيْلَم من ههنا والحرورية

من ههنا ، لحاربنا الحرورية ، وأبو عمران الجوني ، وكان يقول : كان كعب يقول :
قتل الحرورية بفضل قتل غيوم بعشرة أنوار ، ثم نهض المهلب إليهم إلى نهر تيرى ،
فتنحروا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلب يجبي ما حواله من الكور ، وقد دس الجواسيس
إلى عسكر الخوارج ، فأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم ، فإذا حشوة ما بين
قصار وصباغ وداعر وحداد ، فخطب المهلب الناس ، فذكر من هناك ،
وقال للناس : أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيكم ؟! فلم يزال مقيماً حتى فهمهم
وأحكم أمره وقوى أصحابه ، وكثرت الفرسان في عسكره ، وتنام إليه
زهة عشرين ألفاً ، ثم مضى يؤم سوق الأهواز ، فاستخلف أخاه المكارك بن
أبي صفرة على نهر تيرى ، وفي مقدمته المغيرة بن المهلب ، حتى قاربهم المغيرة
فتناوشوه ، فانكشف عنه بعض أصحابه ، وثبت المغيرة بقية يومه وليته ، برقد
النيران ، ثم غاداهم القتال ، فإذا القوم قد أوقدوا النيران في ثقله متاعهم ،
وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل الخيل خيل
المهلب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكب بذلك إلى الحرث بن عبد الله بن أبي
ربيعه كتاباً يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإننا منذ خرجنا تؤم هذا العدو في
نعم من الله متصلة علينا ، ونقمة من الله متابعة عليهم ، نقدم ويحجمون ،
ونخل ويوتحلون ، إلى أن حللنا سوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذي
من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم .

فكتب إليه الحرث : هنيئاً لك أخا الأزد الشرف في الدنيا ، والدختر في
الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلب لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز ! أما ترونه يعرف اسمي
واسم أبي وكنيتي ؟!

وكان المهلب : يث الأحراس في الأمن ، كما يثهم في الخوف ، ويذكي
العيون في الأمصار ، كما يذكها في الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحريز ، ويخوفهم

البيات ، وإن بعد منهم العدو ، ويقول : احذروا أن تُكادوا كما تُكيدون ، ولا تقولوا هزمنا وغلبنا ، فإن القوم خائفون وجلون ، والضرورة تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال :

يا أيها الناس ! إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قدروا عليكم فتوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولهم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد لقيهم قبلكم الصابر المحتسب مسلم بن عيسى ، والعجيل المفرط عثمان بن عبيد الله ، والمعصي الخالف حارثة بن بدر ، فقتلوا جميعاً وقتلوا ، فالقوم يجد واحد ، فإنما هم مهتكم وعبيدكم ، وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيكم ، ويطؤوا حريمكم .

ثم سار يريدكم ، وهم بمنابر الصغرى ، فوجه عبيد الله بن بشر بن الماحوز رئيس الخوارج رجلاً يقال له واقد ، مولى لآل أبي صفرة من سبي الجاهلية ، في خمسين رجلاً ، فيهم صالح بن خراق ، إلى نهر تيرى ، وبها المعارك بن أبي صفرة ، فقتلوه وصلبوه ، فمضى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تيرى وقد خرج واقد منها ، فاستنزه ودفعه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ، ورجع إلى أبيه وقد حل بسولاف ، والخوارج بها ، فواقعهم ، وجعل على بني تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجل من أصحاب المهلب ، يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحض الناس وهو على فرس له صفراء ، فجعل يأتي الميمنة والميسرة والقلب ، فيحض الناس ويهون أمر الخوارج ، ويختال بين الصفين ، فقال رجل من الخوارج لأصحابه : يامعشر المهاجرين ! هل لكم في فتكة فيها أرنجحة ؟ فحمل جماعة منهم على الإسكاف ، فقاتلهم وحده فارماً ، ثم كبا به فرسه ، فقاتلهم راجلاً ، قائماً وباركاً ، ثم كثرت به الجراحات ، فذئب بسيفه ، وجعل يحثو التراب في وجوههم ، والمهلب غير حاضر ، ثم قتل رحمه الله ، وحضر المهلب فأخبر ، فقال للحريش وعطية العنبري : آسأمتا سيد أهل العسكر ، لم تعيناه ولم تستنقذاه ، حسداً له ، لأنه رجل من الموالي ؟ ! ووبخها ، وحمل

رجلٌ من الحوارج على رجل من أصحابه فقتله ، فحمل عليه المهب فطعنه وقتله ،
ومال الحوارج بأجمعهم على العسكر ، فانهزم الناس ، وقتلوا سبعين رجلاً ، وثبت
المهب ، وأبلى المغيرة يومئذ وعُرف مكانه . ويقال : حاص المهب يومئذ
حيصة . وتقول الأزد : بل كان يرد المنهزمة ويحمي أديارهم ، فقال رجلٌ من
بني منقر بن عبيد بن الحرث بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم :

بسولاف أضعت دماء قومي وطرت على مواشكة درور

قوله « مواشكة » يريد سريعة . ويقال : نحن على وشك رحيل . ويقال :
ذميل مواشك ، إذا كان سريعاً . قال ذو الرمة :

إذا ما رمينا رمية في مفازة عراقيا بالشيظمي المواشك

و « درور » ، فعولٌ من در الشيء : إذا تتابع .

وقال رجلٌ من بني تميم آخر :

تبنا الأعور الكذاب طوعاً يزجي كل أربعة حمرا
فياندمي على تركي عطائي معاينة وأطلبه ضمرا
إذا الرحمن يسر لي قفولاً فحرق في قري سولاف ناراً

قوله : « الأعور الكذاب » يعني المهب ، ويقال عارت عينه بسهم . كان
أصابها . وقال « الكذاب » لأن المهب كان فقيراً ، وكان يعلم ما جاء عن رسول
الله ﷺ من قوله : « كل كذب يكتب كذباً إلا ثلاثة : الكذب في الصلح
بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته بعدها ، وكذب الرجل في الحرب بتوعد
ويتهدد » ، وجاء عنه ﷺ : « إنما أنت رجل » ، فخذل عنا ، فإمّا الحرب
خدعة . وقال عليه السلام في حرب الخندق لسعد بن عباد وسعد بن معاذ ،
وهما سيدا الحزج والأوس : « ايأيا بني قريظة ، فان كانوا على العهد
فأعلنّا بذلك ، وان كانوا قد نقضوا ما بيننا فالحناي لحاً أعرفه ، ولا تفتنا في
أعضاء المسلمين ، فرجعا بغدر القوم فقالا : يا رسول الله عضل والقارة ، قال :

فقال رسول الله ﷺ للمسلمين : « ابشروا فإن الأمر ما تحبثون » . قال الأخفش : سألت المبرد عن قولهما « عضلٌ والقارة » فقال : هذان حيّانٌ كانا في نهاية العداوة لرسول الله ﷺ ، فأرادا أنهم في الانحراف عنه والغدر به ككهايتين القيلتين .

قال أبو العباس : فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ويضعف من أمر الحوارج ، فكان حيٌّ من الأزد يقال لهم الندبُ إذا رأوا المهلب رائحاً إليهم قالوا : قد راح المهلب ليكذب : وفيه يقول رجلٌ منهم :
أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدقُ ما تقولُ



فبات المهلب في ألفين ، فلما أصبح رجع بعض المنهزمة فصار في أربعة آلاف ، فخطب أصحابه فقال : والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع ، فإن يمسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله فسيروا إلى عدوكم على بركة الله . فقام إليه الحريش بن هلالٍ فقال : أنشدك الله - أيها الأمير - أن تقاتلهم إلا أن يقاتلوك ، فإن بالقوم جراحاً وقد أثخنهم هذه الجولة ، فقبل منه ، ومضى المهلبُ في عشرةٍ فأشرف على عسكر الحوارج ، فلم ير منهم أحداً يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا الموضع ، فارتحل ، فعبر دجلاً ، وصار إلى عاقولٍ لا يؤتى إلا من وجهٍ واحد ، فأقام به ، واستراح الناس ثلاثاً ، وقال ابن قيس الرقيات :

ألا طرقت من آل بية طارقه	على أنها معشوقة الدلّ عاشقه
تبيت وأرض السّوس بيني وبينها	ويولاف رستاق حمة الأزارقة
إذا نحن شئنا صادفتنا عصابة	حروورية أضحت من الدين مارقة
أجازت إلينا العسكرين كليهما	فباتت لنا دون اللعاف معانقه

وقد ذكرنا « الضَّهَار » ومعناه الغائب ، وأصله من قولك « أضمرت الشيء » ،
أي أخفيته عنك ، ويقال : مالٌ عَيْنٌ ، للحاضر ، ومالٌ خِمَارٌ ، للغائب ،
قال الأعشى :

ومن لا تَضِعْ له ذمّةً فيجعلها بعد عينٍ خِمَاراً
وقال أيضاً :

تَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتِكَ الْبَلَا دُنُجْفَى وَتَقَطَعَ مِنَّا الرَّحِمُ

والفعل من هذا « أَضْمَرُ يَضْمُر » والمفعول به « مَضْمَرٌ » ، والفاعل « مَضْمِرٌ » ،
و « الضَّهَار » اسمٌ للفعل في معنى الإضممار . وأسماء الأفعالِ تشركُ المصادر في
معانيها ، تقول : أعطيته عطاءً ، فيشرك العطاء الإعطاء في معناه ، ويسمى به
المفعول . وتقول : كلمته تَكْلِماً وكلاماً ، في معناه ، والمصدر يُنعت به الفاعل
في قولك : رجلٌ عدلٌ ، ورجلٌ كرمٌ ، ورجلٌ نوَمٌ ، ويومٌ غمٌ وغيمٌ ،
وينعت به المفعول في قولك : رجلٌ رضى ، وهذا درهمٌ ضرب الأمير ، وجاءني
الحلقى ، تعني المخلوقين .

وقال رجلٌ من الحوارج في ذلك اليوم :

وكائنٌ تركنا يوم سولافٍ منهم أسارى وقتلى في الجحيم مَصِيرَهَا

قوله « وكائنٌ » معناه : كم ، وأصله كاف التشبيه دخلت على « أي » ،
فصاروا بمنزلة كم ، ونظير ذلك : له كذا وكذا درهماً ، إنما هي « ذا » دخلت
عليها الكاف ، والمعنى : له كهذا العدد من الدراهم . فإذا قال : له كذا كذا
درهماً ، فهو كناية عن أحد عشر درهماً إلى تسعة عشر ، لأنه ضمّ العديدين ،
فإذا قال : كذا وكذا ، فهو كناية عن أحدٍ وعشرين درهماً إلى ما جاز فيه
العطف بعده . ولكن كثرت « كأي » ، فخففت ، والتثقل الأصل ، قال الله
تعالى : (وكأيٍّ من قريةٍ أملت لها وهي ظلمةٌ) ، (وكأيٍّ من نبيٍّ قاتل
معه ربِّيُّون كثيرٌ) وقد قرئ بالتخفيف ، كما قال الشاعر :

وكأى رددنا عنكم من مدجج
يجيء أمام الألف يردي مقتعاً
وقال آخر :

وكأى ترى يوم الغميصاء من فتى
أصيب ولم يجرح وقد كان جارحاً
قال أبو العباس : وهذا أكثر على ألسنتهم ، لطلب التخفيف ، وذلك الأصل ،
وبعض العرب يقلب فيقول « كىء يافى » فيؤخر الهمزة لكثرة الاستعمال ،
قال الشاعر :

وكىء في بني دودان منهم
غداة الرّوع معروفاً كميّ

* * *

قال أبو العباس : فأقام المهب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ، ثم ارتحل
والخوارج بسلى وسليرى. قال الاخفش « سلى » و« سليرى » بفتح السين فيها ،
موضعان بالاهواز ، « وسلى » بكسر السين موضعٌ بالبادية ، وهكذا ينشد
هذا البيت :

كان غديرهم بجنوب سلى
نعام قاق في بلد قفار

فزل قريباً منهم ، فقال ابن الماحوز لأصحابه : ما تنتظرون بعدوكم وقد
هزمتهم بالأمس وكسرتهم حدّهم ؟ فقال له وافدٌ مولى أبي صفرة : يا أمير
المؤمنين ! إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجن ، وبقي أهل النجدة والقوة ، فإن
أصبتهم لم يكن ظفراً هنيئاً ، لاني أراهم لا يصابون حتى يصيبوا ، فإن غلبوا
ذهب الدين ، فقال أصحابه : نافع وافدٌ ! فقال ابن الماحوز : لاتعجلوا على
أخيك ، فإنه إنما قال هذا نظراً لكم . ثم توجه الزبير بن عليّ إلى عسكر المهب
لينظر ما حالهم ، فأتاهم في مائتين ، فحزرم ورجع ، وأمر المهب أصحابه بالتعارس ،
حتى إذا أصبح ركب إليهم على تعيةٍ صحيحة ، فالتقوا بسلى وسليرى فتصافقوا ،
فخرج من الخوارج مائة فارس ، فركزوا رماحهم بين الصفين واتكثوا
عليها ، وأخرج إليهم المهب عِدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يرمون إلا لصلاً
حتى أمسوا ، فرجع كل قومٍ إلى معسكرهم ، ففعلوا هذا ثلاثة أيام .

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث ، فحمل عليهم هؤلاء الفرسانُ

يجولون ساعة ، ثم إن رجلاً من الحوارج حمل على رجل قطعته ، فحمل عليه المهلب قطعته ، فحمل الحوارج بأجمعهم ، كما صنعوا يوم سولاف ، فضعضوا الناس ، وفقد المهلب ، وثبت المغيرة في جمع أكثرهم أهل عمان ، ثم نجم المهلب في مائة فارس ، وقد انغمست كفاه في الدم ، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المغفر محشوة قزاً ، وقد تمزقت ، وإن حشوها ليطاير ، وهو يلهث ، وذلك في وقت الظهر ، فلم يزل يجاربهم الى الليل ، حتى كثر القتل في الفريقين . فلما كان الغد غاداهم ، وقد كان وجهه بالامس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهم بن الازد ، يرد المنهزمين ، فمر به عامر بن مسمع فردده ، فقال : إن الأمير أذن لي ، فبعث إلى المهلب فأعلمه ، فقال : دعه ، فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف . وقد تفرق أكثر الناس ، فغاداهم المهلب في ثلاثة آلاف ، وقال لأصحابه : ما بكم من قلة ، أيعجز أحدكم أن يرمي برمح ثم يتقدم فيأخذه ؟ ففعل ذلك رجل من كندة يقال له عياش وقال المهلب لأصحابه : أعدوا مخالي فيها حجارة وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصد الفارس وتصرع الراجل ، ففعلوا ، ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه ، يأمرهم بالجد والصبر ، ويطمعهم في العدو ، ففعل ، حتى مر بيني العدوية ، من بني مالك بن حنظلة ، فضربوه ، فدعا المهلب بسيدهم ، وهو معاوية بن عمرو ، فجعل يركله بوجهه ، وهذا معروف في الازد ، فقال له أصلح الله الأمير ، أعفني من أم كيسان ، والرؤبة تسميها الازد أم كيسان ، . ثم حمل المهلب وحملوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فجهد الحوارج ، فنادى مناديهم : ألا إن المهلب قد قتل ، فركب المهلب برزونا قصيراً أشهب ، وأقبل يركض بين الصفين ، وإن إحدى يديه لفي القباء وما يشعر بها ، وهو يصيح : أنا المهلب ، فكمن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل ، وكل الناس مع العصر ، فصاح المهلب بابنه المغيرة : تقدم ، ففعل ، وصاح بذكوان مولاه : قدم رايك ، ففعل ، فقال له رجل من ولده : إنك تغرر بنفسك ، فذمره ، ثم صاح : يا بني قم !

أَأمركم فتعصوني؟! فتقدم وتقدم الناس ، واجتلدوا أشد جلادٍ ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحوز ، وانصرف الحوارج ، ولم يشعر المهلبُ بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوني رجلاً جلدًا يطوفُ في القتلِ ، فأشاروا عليه برجلٍ من جرمٍ ، وقالوا : إننا لم نَرِ رجلاً قطُّ أشد منه ، فطوّفَ ومعه النيران ، فجعل إذا مر بجريحٍ من الحوارج قال : كافرٌ وربُّ الكعبة ، فأجهز عليه ، وإذا مر بجريحٍ من المسلمين أمر بسقيه وحمله .

وأقام المهلبُ في عسكره يأمرهم بالاحتباس ، حتى إذا كان نصف الليل وجه رجلاً من اليمحمد - قال الأخفش : اليمحمد من الأزد ، والخليلُ من بطن منهم يقال لهم الفراهيد ، والفرهودُ في الأصل الحملُ ، فإن نسبت إلى الحي قلت « فراهيدي » وإن نسبت إلى الحملان قلت « فرهودي » لاغيرُ - في عشرةٍ فصاروا إلى عسكر الحوارج ، فإذا القومُ قد تحملوا إلى أرتجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال : أنا لهم الساعة أشدُّ خوفاً ، فاحذروا البيات .

• • •

قال أبو العباس : ويروى عن شعبة بن الحجاج أن المهلب قال لأصحابه يوماً : إن هؤلاء الحوارج قد ينسوا من حاجتكم إلا من جهة البيات ، فإن كان ذلك فاجعلوا شعاركم حَمَ لا ينصرون ، فإن رسولَ الله ﷺ كان يأمرُ بها . ويروى : أنه كان شعار أصحابِ علي بن أبي طالب صلواتُ الله عليه .

فلما أصبح المهلب غداً على القتلى ، فأصاب ابن الماحوز فيهم ، ففي ذلك يقول رجلٌ من الحوارج :

بِسْلَى وسَلْيَرى مِصارعُ قَتِيَةٍ كِرامٍ وجَرَحى لم تَوسدْ خُدودها
وقال آخرُ :

بِسْلَى وسَلْيَرى مِصارعُ قَتِيَةٍ كِرامٍ وعَقْرى من كَميتٍ ومن ورد
وقال رجلٌ من موالي المهلب : لقد صرعتُ يومئذٍ بجِبرٍ واحدٍ ثلاثةً ، رميت به رجلاً فأصبت أصل أذنيه فصرعته ، ثم أخذت الحجر فضربت به آخر على هامته فصرعته ، ثم صرعت به ثالثاً .

وقال رجلٌ من الخوارج :

أنا بأحجارٍ ليقْتلنا بها وهل تقتل الأبطال ويحك بالحجر

وقال رجلٌ من أصحاب المهلب في يومِ سلى وسليرى وقتل ابن الماحوز :

ويومَ سلى وسليرى أحاط بهم منا صواعق ما تبقي ولا تنر

حتى تركنا عيْدَ الله مُتَجِدلاً كما تجدل جُدْعُ مالٍ منقعرٌ

قال أبو العباس : تقولُ العربُ « صاعقةٌ وصواعقٌ » وهو منعبٌ أهل

الحجاز ، وبه تزل القرآن ، وبنو تميم يقولون « صاقعةٌ وصواقعٌ » .

و « المنقعرُ » المتقلعُ من أصله . قال الله أصدقُ القائلين : (كأنهم

أعجازُ نخلٍ منقერი) .

ويروى : أن رجلاً من الخوارج يوم سلى حمل على رجلٍ من أصحاب المهلب قطعنه ،

فلما خالطه الرمحُ صاح : بأمتاء ! فصاح به المهلب : لاكثرَ اللهُ بمثلِكَ المسلمين ،

فضحك الخارجيُّ وقال :

أمك خيرٌ لك مني صاحباً تسفيك محضاً وتعل راثباً

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه نكسَ

على قريوس مرجه وحمل من تحتها فبرأها بسيفه وأثر في أصحابها ، حتى تخرمت

اليمين من أجله . وكان أشدَّ ما تكون الحرب أشدَّ ما يكون تبساً ، فكان

المهلبُ يقولُ : ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشرى في وجهه .

وقال رجلٌ من الخوارج في هذا اليوم :

فإن تك قتلَى يوم سلى تابعت فكم غادرت أسياقنا من قفار

غداة نكر المشرفة فيهم بسولاف يوم المأزق المتلاحم

« المأزق » هو يوم تضايق الحرب . و « المتلاحم » نعت له . و « المشرفة »

السيوف ، نسبت إلى المشارف من أرض الشام . وهو الموضع الملقب بموتة الذي

قتل به جعفر بن أبي طالب وأصحابه .

قال الأخفش : كانت المبرّد لا يهزم « مودة » . ولم اسمعها من علمائنا
إلا بالهمز (.

* * *

قال أبو العباس : فكتب المهلب إلى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة
القباع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإننا لقينا الأزارقة المارقة ، بجدٍ وجدٍ ،
فكانت في الناس جولةً ، ثم تاب أهل الحفاظ والصبر ، بنياتٍ صادقةٍ ، وأبدان
شدادٍ ، وسيوف حدادٍ ، فأعقب الله خير عاقبةٍ ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ،
فصلوا درةً رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله لميرم ابن الماحوز ، وأرجو
أن يكون آخر هذه النعمة كأولها ، والسلام .

فكتب إليه القباع :

قد قرأت كتابك يا أخا الأزدي ، فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا
وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ، ورأيتك أوثق حصون
المسلمين ، وهادئ أركان المشركين ، وأخا السياسة وذا الرياسة ، فاستدم الله
بشكره ، يتم عليك نعمه ، والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يثنونه ، ولم يكتب إليه الأخنف ، ولكن قال :
اقرأ عليه السلام ، وقولوا له : أنا لك على ما فارقتك عليه . فلم يزل يقرأ
الكتب ويلتمس في أضعافها كتاب الأخنف ، فلما لم يره قال لأصحابه : أما
كتب إلينا ؟ فقال له الرسول : حملني إليك رسالة ، وأبلغه ، فقال : هذه
أحب إلي من هذه الكتب .

* * *

واجتمعت الحوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن علي ، وهو من بني سليط
ابن يربوع ، من رهط ابن الماحوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً وضعفاً بيناً ،

فقال لهم : اجتمعوا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيصاً وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبةٌ وخزيٌ ، وإن يصب منكم أمير المؤمنين فما صار إليه خيرٌ مما خَلَفَ ، وقد أصبتم منهم مُسلمَ بن عيسى ، وربيعاً الأجدم ، والحجاج بن بابٍ ، وحارثة بن بدرٍ ، وأشجيتُ المهلبَ ، وقتلتم أخاه المَعاركَ ، والله يقولُ لإخوانكم من المؤمنين : (إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله ، وتلك الأيامُ نداؤها بين الناس) فيوم سلى كان لكم بلاءٌ وتمحيصاً ، ويوم سولاف كان لهم عقوبةٌ ونكالاً ، فلا تغلبن على الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحملَ لمحاربة المهلبِ ، فنفتحهم للمهلب نفحةً ، فرجعوا ، فأكمنَ للمهلب في غمضٍ من غموض الأرض ، يقرب من عسكره ، مائة فارس ليغتالوه ، فسار المهلب يوماً يطوف بعسكره ويتفقد سواده ، فوقف على جبلٍ فقال : إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أكننت في سفح هذا الجبلِ كميناً ، فبعث عشرة فوارس ، فاطلعوا على المنة ، فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا ، وكسفت الشمس ، فصاحوا بهم : يا أعداء الله ! لو قامت القيامة لجددنا في جهادكم . ثم ينس الزبير من ناحية المهلب ، فضرب إلى ناحية أصبهان ، ثم كر واجعاً إلى أرتجان . وقد جمع جموعاً ، وكان المهلب يقولُ : كأنني بالزبير وقد جمع جموعاً ، فلا يرهبهم فتخبت قلوبكم ، ولا تغفلوا الاحتراس فيطمعوا فيكم . فجاؤوه من أرتجان فالتفؤه مستعداً آخذاً بأفواه الطرُق ، فحاربوه ، فظهر عليهم ظهوراً بيناً . ففي ذلك يقول رجلٌ من بني تميم ، أحسبه من بني رباح ابن يربوع :

سقى الله المهلبَ كلَّ غيثٍ من الوسميِّ يتعزُّ انتصاراً
فما وَّهن المهلبُ يوم جاءت عوايسُ خيلهم تبغي الغوارا

وقال المهلب يومئذ : ما وقعت في أمر ضيق من الحرب إلا رأيت أمامي رجالاً من بني المهجيم بن عمرو بن تميم يجالدون ، وكان لحام أذئاب العقاق . وكانوا صبروا معه في غير موطن .

وقال رجل من بني تميم ، من بني عبشمس بن سعد :
ألا يا من لصبٍ مستحسنٍ قريح القلب قد صحب المزونا
لهان على المهلب ما لقينا إذا مراح مسروراً بطينا
يجر السابري ونحن شعث كأن جلودنا كسيت طحينا
« المزون » عمام ، وهو اسم من أسماؤها . قال الكميت :
فأما الأزدُ أزدُ أبي سعيدٍ فأكره أن أسميها المزونا

وقال جرير :

وأطفأت نيران المزون وأهلها وقد حاولوها فتنة أن تسعرا
وحمل يومئذ الحريش بن هلال على قيس الإكاف ، وكان قيس من أنجدة
فرسان الحوارج ، قطعنه فدق صلبه ، وقال :
قيسُ الإكاف غداة الرّوع يعلمني ثبتت المقام إذا لاقيت أقراني

• • •

وقد كان قلُ المهلب يوم سلى وسلّى صاروا إلى البصرة ، فذكروا
أن المهلب أصيب ، فهم أهل البصرة بالنقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابه
بظفره ، فأقام الناس ، وتراجع من كان ذهب منهم ، فعند ذلك يقول الأحنف
ابن قيس : البصرة بصرة المهلب . وقدم رجل من كينة يقال له فلان بن
أرقم ، فعى ابن عم له ، وقال : رأيت رجلاً من الحوارج وقد مكّن ربحه
من صلبه ، فقدم المنعي ، فقل له ذلك ، فقال : صدق ابن أرقم لما أحست
بربحه بين كفتي صحت به البقية ! فرفعه عني ، وتلا « بقية الله خير لكم
إن كنتم مؤمنين » .

ووجه المهلب بعقب هذه الواقعة رجلاً من الأزد برأس عبيد الله بن بشر بن الماحوز إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاع ، فلما صار بكرثج دينار لقيه حبيب وعبد الملك وعلي بنو بشر بن الماحوز ، فقالوا له : ما الخبر ؟ ولا يعرفهم ، فقال : قتل الله المارق ابن الماحوز ، وهذا رأسه معي ! فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ودفنوا الرأس ، فلما ولي الحجاج دخل عليه علي بن بشر ، وكان وسيماً جسيماً ، فقال : من هذا ؟ فخبّر فقتله ، ووهب ابنه الأزهر وابنته لأهل الأزدي المقتول ، وكانت زينب بنت بشر لهم مواصلة ، فوهبهما لها .

فلم يزل المهلب يقاتل الحوارج في ولاية الحارث القُبَاع ، حتى عُزل الحارث ووُلي مصعب بن الزبير ، فكتب إليه أن اقدم علي واستخلف ابنك المغيرة ، ففعل ، فجمع الناس فقال لهم : إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم رقة ورحمة ، وابن كبيركم طاعة ويراً وتجيلاً ، وأخو مثله مواصلة ومناصرة ، فلتحسن له طاعتكم ، وليلن له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سبقني إليه . ثم مضى إلى مصعب ، وكتب مصعب إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك لم تكن كأيك ، فإنك كاف لما وليتك ، فشمّر وانتزرت وجد واجتهد .

ثم شَخَص المصعب إلى المذار ، فقتل أحمراً بن شبيب ، ثم أتى الكوفة فقتل المختار بن أبي عبيد . وقال للمهلب : أشر علي بزعج أجعله بيني وبين عبد الملك . فقال له : أذكرك لك واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عطاردي الدارمي ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي ، أو داؤود بن قحذم ، فقال : أو تكفيني ؟ قال : أ يكفيك إن شاء الله ، فولاه الموصل ، فشخص المهلب إليها .

وصار مصعب إلى البصرة ، فسأل : من يشتكفي أمر الحوارج ويفد

إلى أخيه ، فشاور الناس ، فقال قومٌ : ولّ عبيد الله بن أبي بكره ، وقال قومٌ : ولّ عمر بن عبيد الله بن معمر ، وقال قومٌ : ليس لهم إلا المهلب فلودّده إليهم .

وبلغت المشورة الحوارج ، فأداروا الأمر بينهم ، فقال قطريّ بن الفجاءة المازنيّ : إنّ جاءكم عبيد الله بن أبي بكره أتاكم سيّدٌ سمحٌ جوادٌ كريمٌ مصيعٌ لعسكره ، وإنّ جاءكم عمر بن عبيد الله بن معمر أتاكم شجاعٌ بطلٌ فارس جادٌ ، يقاتل لدينه ومملكه ، وبطيعةٍ لم أر مثلاً لأحدٍ ، فقد شهدته في وقائع فما نودي في القوم لحربٍ إلا كان أول فارسٍ يطلع حتى يشد على قرنه فيضربه ، وإن رُدّ المهلب فهو من قد عرفتموه : إن أخذتم بطرف ثوبٍ أخذ بطرفه الآخر ؛ يمدّه إذا أرسلتموه ، ويرسله إذا مددتموه ، لا يبدؤكم إلا أن تبدؤوه ، إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المسير ، والشعل الرواغ ، والبلاء المقيم

فولى عليهم عمر بن عبيد الله ، وولاه فارس ، والحوارج بأرجان ، وعليهم الزبير بن علي السليطي ، فشنّ عليهم فقاتلهم ، وألح عليهم حتى أخرجهم عنها ، فألقهم بأصبهان ، فلما بلغ المهلب أن مصعباً ولي عمر بن عبيد الله قال : رمام بفارس العرب وقتاها .

فجمعوا له وأعدّوا واستعدوا ، ثم أتوا سابور ، فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن حسان الأزدي : ان المهلب كان يذكي العيون ، ويخاف الليات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم ، فقال له عمر : اسكت خلع الله قلبك ! أتراك تموت قبل أجلك ؟! فأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيته الحوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح فلم يظفروا منه بشيء ، فأقبل على مالك بن حسان فقال : كيف رأيت ؟ قال : قد سلّم الله عز وجل ، ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها ، فقال : أما إنكم لو

فاصحتوني مناصحتكم الملب لرجوت أن أنقي هذا العدو ، ولكنكم تقولون :
قرشي حجازي بعيد الدار ، خيره لغيرنا ، فقاتلون معي تعذراً .

• • •

ثم زحف إلى الحوارج من غد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى
ألجأهم إلى قنطرة ، فكاثف الناس عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها ، ثم
عبروا ، وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر ، وأمه من بني سهم بن عمرو بن
هصيص بن كعب ، فقاتلهم حتى قُتل . فقال قطري : لا تقاتلوا عمر
اليوم فإنه موتور . ولم يعلم عمر بقتل ابنه ، حتى أفضى إلى القوم ، وكان مع
ابنه النعمان بن عباد ، فصاح به : يا نعمان ! أين ابني ؟ فقال : احتسبه أيها
الأمير ، فقد استشهد رحمه الله صابراً مقبلاً غير مدبر . فقال : إنا لله
وإنا إليه راجعون . ثم حمل على الناس حملة لم يُرَ مثلاً . وحمل أصحابه بحملته
فقتلوا في وجههم ذلك تعين رجلاً من الحوارج ، وحمل على قطري فضربه
على جبينه ففلقه . وانهمزت الحوارج ، وانتهى . فلما استقرؤوا ، قال لهم
قطري : أما أشرت عليكم بالانصراف ؟ فجعلوه وجوههم حتى خرجوا
من فارس .

وتلقاهم في ذلك الوقت الفيزر بن مهزم العبدي . فسأله عن خبره ؟
وأرادوا قتله ! فأقبل على قطري فقال : إني مؤمنٌ مهاجرٌ ، فسأله عن أقاويلهم ؟
فأجابها ، فخلعوا عنه ، ففي ذلك يقول في كلمة له :

وشدوا وثاقي ثم ألجوا خصومي إلى قطري ذي الجين المفلق

وحاجبتهم في دينهم وحجبتهم وما دينهم غير الهوى والتخلق

ثم إنهم تراجعوا وتكاثفوا . (قال الأخفش : « تكاثفوا » أعان بعضهم
بعضاً واجتمعوا وصار بعضهم في كنف بعض) وعادوا إلى ناحية أرباجان ،
فسار إليهم عمر ، وكتب إلى مصعب : أما بعد . فإني قد لقيت الأزارقة ،

فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ، ووهب له السعادة ، ورزقنا عليهم الظفر ، ففرقوا شذر مذر ، وبلغتني عنهم عودة ، فيممتهم ، وبالله أستعين وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ومجاعة بن سعيد ، فالتقوا ، فآلح عليهم حتى أخرجهم ، وانفرد عمر من أصحابه ، فعمد له أربعة عشر رجلاً منهم ، من مذكوريهم وشجعانهم ، وفي يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرعه . فركض إليه قطري على فرس طيمري ، وعمر على مهر ، فاستعلاه قطري بقوة فرسه حتى كاد يصرعه ، فبصر به مجاعة فأصرع إليه ، فصاحت الحوارج بقطري : يا أبا نعام ! إن عدو الله قد رهقك ، فانمط قطري عن قربوسه ، فطعنه مجاعة ، وعلى قطري درعان فهتكها وأمرع السنان في رأس قطري ، فكشط عنه جلدة ونجا .

وارتحل القوم إلى أصفهان فأقاموا بها برهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ، وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى أصطخر ، فأمر مجاعة فجبى الحراج أسبوعاً ، فقال له : كم جيت ؟ قال : تسعمائة ألف ، فقال : هي لك ، فقال يزيد ابن الحكم الثقفي لمجاعة :

ودعاك دعوة مرهق فأجبتك عمر وقد نسي الحياة وضاعا
فرددت عادة الكتبية عن قتي قد كاد يترك لحمه أوزاعا

وعزل مصعب بن الزبير وولي حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فوجه الملب إليهم ، فحاربهم فأخرجهم عن الأهواز ، ثم رُد مصعب والملب بالبصرة ، والحوارج بأطراف أصبهان ، والوالي عليها عتاب بن ورقاء الرياحي ، فأقام الحوارج هناك شيئاً يجنبون القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس ، فكتب مصعب إلى عمر بن عبيد الله : ما أنصفتنا ، آمنت بفارس تجبي الحراج ومثل هذا العدو بجاربك ، والله لو قاتلت ثم هربت لكان أعذر لك . وخرج مصعب من البصرة يريدكم ، وأقبل عمر بن عبيد الله يريدكم ، فتحنى الحراج إلى السوس ،

ثم أتوا المدائن ، فقتلوا أحر طيسه ، وكان شجاعاً ، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر ، ففي ذلك يقول الشاعر :

تركتم فتى الفتيان أحر طيسه بساباط لم يعطيف عليه خليل

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادها ، ووالها الحارث بن عبد الله القباع ، فتناقل عن الخروج ، وكان جباناً ، فدمره إبراهيم بن الأستر ، ولامه الناس فخرج متحاملًا حتى أتى النخيلة ، ففي ذلك يقول الشاعر :

إن القباع سار سيرا نكرا يسير يوماً ويقم شهرا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج ، والحوارج يعيئون ، حتى أخذوا امرأة فقتلوا أباهما بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلها ، فقالت : أقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الحسام غير ممين ؟! فقال قائل منهم : دعوها ، فقالوا : قد فتنك ، ثم قداموها فقتلوها ، ثم قرءوا أخرى ، وهم بجذاء القباع ، والجسر معقود بينها ، فقطعه القباع ، وهو في ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهي تقول : علام تقتلونني ؟ فوالله ما فسقت ولا كفرت ولا ارتددت ! والناس يتفلتون إلى الحوارج ، والقباع بمنعهم ، فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذلك بقطع الجسر ، فأقام بين دبابها وديري خمسة أيام ، والحوارج بقربه ، وهو يقول للناس في كل يوم : إذا لقيتم العدو غداً فأثبتوا أقدامكم واصبروا ، فإن أول الحرب الترامي ، ثم إشراع الرماح ، ثم السلة ، فشككت رجلاً أمه فر من الزحف . فقال بعضهم لما أكثر عليهم : أما الصفة فقد سمعناها ، فتى يقع الفعل ؟! وقال الراجز :

إن القباع سار سيرا ملها بين دبابها وديري خمسا

فأخذ الحوارج حاجتهم ، وكان شأن القباع التحصن منهم ، ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ، وصاروا من فورهم إلى أصبهان ، فبعث عتاب بن ورقاء إلى الزبير بن عتيب : أنا ابن عمك ، ولست أراك تقصيد في انصرافك من كل حرب غيري . فبعث إليه الزبير : إن أدنى الفاسقين وأبعدهم من الحق سواء .

ولما سمى الحُرثُ بن عبد الله بن أبي ربيعة القبايع لأنه ولي البصرة فعيرَ
على الناس مكاييلهم ، فنظر إلى مكيالٍ صغيرٍ في مرآة العين وقد أحاط بدقيق
استكثره ، فقال : إن مكيالكم هذا لقبايعٌ . و « القبايعُ » الذي يخفي أو
يخفى ما فيه ، يقال : اتبع الرجلُ : إذا استتر ، ويقال للقفد القبعُ وذلك
أنه يخنِسُ رأسه .

قال أبو العباس : وأقام الخوارجُ يغادون عتاب بن ورقاء القتال ويراوحونه ،
حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا منه بكبير ، فلما كثر ذلك عليهم انصرفوا ،
لا يمرُّون بقريةٍ بين أصفهان والأهواز إلا استباحوها وقتلوا من فيها .

* * *

وشاور المصعبُ الناسَ فيهم ، فأجمع رأيهم على الملب ، فبلغ الخوارجُ
مشورتهُ ، فقال لهم قطريُّ : إن جاءكم عتابُ بن ورقاء فهو فانكٌ يطلع في
أول المقلب ولا يظفرُ بكبير ، وإن جاءكم عمر بن عُبيد الله ففارسٌ يقدمُ ،
فإمّا له وإمّا عليه ، وإن جاءكم الملب فرجلٌ لا يناجزكم حتى تتأجيزوه ، ويأخذ
منكم ولا يعطيكم ، فهو البلاءُ اللازم ، والمكروه الدائم .

وعزَمَ المصعبُ على توجيه الملب ، وأن يَشخصَ هو لحرب عبد الملك فلما
أحسنَ به الزبير بن عليٍّ خرج إلى الري ، وبها يزيدُ بن الحُرث بن رُويم ،
فعاربه ثم حصره ، فلما طال عليه الحصارُ خرج إليه ، فكان الظفرُ للخوارج ،
فقتل يزيدُ بن رُويم ، ونادى يومئذ ابنه حوشباً ففر عنه وعن أمه لطيفة ،
وكان عليُّ بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحُرث بن رُويم يعود ابنه يزيد ،
فقال له : عندي جاريةٌ لطيفةٌ الخدمةُ أبعثُ بها إليك . فساها يزيدُ لطيفة ،
فقبلتُ معه يومئذ ، ففي ذلك يقول الشاعرُ :

مواقفنا في كلِّ يومٍ كريمةٍ	أمرٌ وأشفى من مواقف حوشبٍ
دعاه يزيدُ والرماحُ شوارعُ	فلم يستجب بل راغ ترواعُ تلعب

ولو كان شهم النفس أو ذا حفيظة رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

وقد مر خبر عيسى بن مصعب مستقصى وقال آخر :

نجى حليته وأسلم شيخه نصب الأسنه حوشب بن يزيد

وقال ابن حوشب لبلال بن أبي بردة يعبره بأمه ، وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يا ابن حوراء ! فقال بلال ، وكان جلدأ : إن الأمة تسمى حوراء وجيداء ولطيفة !! وزعم الكلبي أن بلالاً كانت جلدأ حيث ابتلي . قال الكلبي : ويعجبني أن أرى الأسير جلدأ . قال : وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف بن عمر : الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدهد ركنك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفاً بالشريف ، مظهراً للعصية ! فقال له بلال : إنما طال لسائتك بإخالد ثلاث معك ممن علي : الأمر عليك "مقبيل" وهو عني مدبر" ، وأنت مطلق وأنا مأسور ، وأنت في طينتك وأنا في هذا البلد غريب . وإنما جرى الى هذا لأنه يقال أن أصل آل الأهم من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت في بني منقر من الروم .

* * *

ثم انخط الزبير بن علي على أصفهان فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتاب يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار قال لأصحابه : ما تنتظرون؟ والله ماثوتون من قلة ، وإنكم لفرسان عشاثركم ، ولقد حاربتموم مراراً فانتصقم منهم ، وما بقي منع هذا الحصار إلا ان تقنى ذخائركم ، فيموت أحدكم ، فيدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه ، فقاتلوا القوم وبكم قوة ، من قبل ان يضعف أحدكم عن أن يمشي إلى قرينه !! فلما أصبح الغد ، صلى بهم الصبح ، ثم خرج بهم إلى الحوارج وهم غارئون ، وقد نصب لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : من أراد البقاء فليلق بلواء ياسمين ، ومن أراد الجهاد فليخرج معي . فخرج في ألفين وسبعمائة فارس ، فلم يشعر بهم الحوارج حتى غشوهم ، فقاتلوهم مجدى لم ير الحوارج منهم مثله ، ففقدوا منهم خلقاً

كثيراً وقتلوا الزبير بن علي ، وانتهزت الحوارج ، فلم يتبعهم عتاب ،
ففي ذلك يقول الشاعر :

ويوم يجي تلافيته ولولاك لاصطلم العسكر

قال أبو العباس : تفسر قوله « ولولاك » في آخر هذا الخبر إن شاء الله .
وقال رجل من بني ضبة في تلك الواقعة :

خرجت من المدينة مستمينا ولم أك في كنية يميننا

أليس من الفضائل أن قومي غدوا مستلمين مجاهدينا

وترعم الرواة أنهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضهم
على بعض ، وربما كانت موافقة بغير حرب ، وربما اشتدت الحرب بينهم ،
وكان رجل من أصحاب عتاب يقال له شريح ، ويكنى أبا هريرة ، إذا
تجاوز القوم مع المساء نادى بالحوارج وبالزبير بن علي :

يا ابن أبي المأخوذ والأشرار كيف ترون يا كلاب النار

شدّ أبي هريرة الحرار يهرئكم بالليل والنهار

ألم تروا جيّاً على المضار تمسي من الرحمن في جوار

فغاضبهم ذلك منه ، فكمن له عبيدة بن هلال فضربه ، واحتمله أصحابه ،
فظنت الحوارج أنه قد قتل ، فكانوا إذا تواقفوا نادوهم : ما فعل الحرار ؟
فيقولون : ما به من بأس ، حتى أبل من عله ، فخرج إليهم فصاح :
يا أعداء الله ! أترون بي بأساً ؟ فصاحوا به : قد كنّا نرى أنك لحقت
بأمك الهاوية ، في النار الحامية .

قال أبو العباس : تفسر أشياء من العريضة تحتاج إلى الشرح . من ذلك
قوله « ولولاك » ، ومنه قوله « ألم تروا جيّاً » ، ومنه قوله « يهرئكم بالليل والنهار » .
أما قوله « لولاك » فإن سيويه يزعم أن « لولا » ، تنقض المضمر ويرتفع بعدها
الظاهر بالابتداء ، فيقال : إذا قلت « لولاك » ، فما الدليل ، على أن الكاف
منخفضة دون أن تكون منصوبة ، وضمير النصب كضمير الخفض ؟ فتقول :

إنك تقول لنفسك « لولاي » ولو كانت منصوبةً لكانت النون قبل الياء ،
كقولك « رماني واعطاني » قال يزيد بن الحكم التقي :
وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوي
« النيق » أعلى الجبل ، و « جرم » الإنسان : خلقه .

فيقال له : الضمير في موضع ظاهره ، فكيف يكون مختلفاً ؟ وإن كان
هذا جائزاً فلم لا يكون في الفعل وما أشبه نحو « إن » وما كان معها
في الباب ؟

وزعم الاخفش سعيداً ان الضمير مرفوعٌ ، ولكن وافق ضمير الحذف ،
كما يستوي الحذف والنصب . فيقال : فهل هذا في غير هذا الموضع ؟!
قال ابو العباس : والذي اقله ان هذا خطأ لا يصلح ، إلا ان تقول « لولا
انت » كما قال الله عز وجل : (لولا انتم لكانا مؤمنين) ومن خالفنا فهو
لا بد يزعم ان الذي قلناه اجود . ويدعي الوجه الآخر فيجيزه على بعده .
وأما « جي » فالاجود فيها ان تقول :

« الم تروا جي على المضار » .

فلا ترون ، لانها مدينةٌ ، والاسم اعجميٌ ، والمؤنث إذا سمى باسم اعجميٍ
على ثلاثة احرف لم ينصرف إذا كان مؤنثاً وان كان اوسطه ساكناً نحو جورٌ
وحمص وماء وما كان مثل ذلك ، ولو كان اسماً لمذكرٍ لانصرف ، فإن صرفته
جعلته اسماً لبلدٍ ، وان لم تصرفه جعلته اسماً لبلدةٍ او لمدينةٍ ، الا ترى انك
تصرف نوحاً ولوطاً ، وهما اعجميان ؟ وكذلك لو كان على ثلاثة احرف كلها
متحركاً ، لانك تصرف « قدماً » لو سميت به رجلاً ، فالاعجميُّ بمنزلة المؤنث ،
لان امتناعها واحداً .

وأما قوله « يهرُّكم » فإن كل ما كان من المضاعف على ثلاثة احرف وكان
متعدياً فإن المضارع منه على « يفعل » نحو شدة يشده ، وزرّه يزره ، ورده
يرده ، وحله يحله . وجاء منه حرفان على « يفعل » و « يفعل » فيها جيدٌ ،

هره يهره : إذا كرهه ، ويهره أجود ، وعلة بالخناء يعيله ، ويعله أجود .
ومن قال حبيته قال تحيته لا غير ، وقرأ أبو رجاء العطاردي
(فاتبعوني بحبكم الله) وذلك أن بني عيم قد غم في موضع الجزم وتحركوا
أواخره لالتقاء الساكنين .

★ ★ ★

رجع الحديث

قال أبو العباس : ثم إن الخوارج أداروا أمرهم بينهم ، فأرادوا تولية عبدة
ابن هلال ، فقال : أدلكم على من هو خير لكم مني ، من يطاعن في قبل ،
ومجني في دبر ، عليكم قطري بن الفجاءة المازني . فبايعوه ، فوقف بهم ، فقالوا :
يا أمير المؤمنين ! امض بنا إلى فارس ، فقال : إن بفارس عمر بن عبيد الله بن
معمر ، ولكن نصير إلى الأهواز ، فإن خرج مصعب بن الزبير من البصرة دخلناها .
فأتوا الأهواز ، ثم ترفعوا عنها إلى اندج ، وكان مصعب قد عزم على الخروج
إلى باجميرا ، فقال لأصحابه : إن قطرياً قد أطل علينا ، وإن خرجنا عن البصرة
دخلها ، فبعث إلى المهلب فقال : اكفنا هذا العدو ، فخرج إليهم المهلب ، فلما
أحسن به قطري تيمم نحو كرمان ، فأقام المهلب بالأهواز ، ثم كر قطري
عليه وقد استعد ، فكان الخوارج في جميع حالاتهم أحسن عدة ممن يقاتلهم ،
بكثرة السلاح ، وكثرة الدواب ، وحصانة الجثث ، فعاربهم المهلب فنقام إلى
رام مرمز .

وكان الحرث بن عميرة الهمداني قد صار إلى المهلب مراغماً لعتاب بن ورقاء
يقال أنه لم يرضه عن قتله الزبير بن علي ، وكان الحرث بن عميرة هو الذي تولى
قتله وحاص إليه أصحابه ، ففي ذلك يقول أعشى همدان :

إن المكارم أكملت أسبابها لابن اللبث الغر من قحطان
للفارس الحامي الحقيقة معلماً زاد الرقاق إلى قرى نجران
الحرث بن عميرة الليث الذي يحمي العراق إلى قرى كرمان
ودّ الأزارق لو يصاب بطعنة ويموت من فرسانهم مائتان

ويروى : زاد الرقاق وفارس الفرسان ، وتأويله : أن الرققة إذا صحبها أغناها
عن التزوّد كما قال جرير ، وأراد ابن له سفاً ، وفي ذلك السفر يحيى بن أبي
حفصة ، فقال لأبيه زوّدني ، فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريدُ وصاحباً ألا إن يحيى نعم زادُ المسافر
فما تكبرُ الكوّماء ضربة سيفه إذا أرملوا أو خف ما في الغرائر
وقوله « ويموت من فرسانهم » يكون على وجهين : مرفوعاً ومنصوباً ، فالرفع
على العطف ، ويدخل في التمني ، والنصب على الشرط والخروج من العطف ،
وفي مصنف ابن مسعود (ودّوا لو تذهبن فيدعنوا) والقراءة (فيدعنون)
على العطف ، وفي الكلام : ودّ لو تأتيه فتحدثه ، وإن شئت نصبت الثاني .

قال أبو العباس : وخرج مصعب بن الزبير إلى باجيرة ، ثم أتى الحوارج
خبراً مقتله بمكين ، ولم يأت الملب وأصحابه ، فتواقفوا يوماً على الحدق ،
فناداهم الحوارج : ما تقولون في المصعب ؟ قالوا : إمام هدي ، قالوا : فما
تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : ضالّ مضلّ . فلما كان بعد يومين أتى الملب
قتل مصعب ، وأن أهل الشام اجتمعوا على عبد الملك ، وورد عليه كتاب عبد
الملك بولايته ، فلما تواقفوا ناداهم الحوارج : ما تقولون في مصعب ؟ قالوا : لا نخبركم ! قالوا :
فما تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدي ! قالوا : يا أعداء الله ! بالأمس
ضالّ مضلّ واليوم إمام هدي ؟ ! يا عبيد الدنيا ! عليكم لعنة الله !!

وولى خالد بن عبد الله بن أسيد ، فقدم فدخل البصرة ، فأراد عزل المهلب فأشير عليه بأن لا يفعل ، وقيل له : إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ، فقد تتحى عمر ، وإن تحيت المهلب لم تأمن على البصرة الأزارقة ، فأبى إلا عزله ، فقدم المهلب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ، فأشخصه ، فلما صار بكربيع دينار لقيه قطري فمنعه خط انتقاله ، وحاربه ثلاثين يوماً ، ثم أقام قطري بإزائه ، وخذق على نفسه ، فقال المهلب : إن قطرياً ليس بأحق بالخذق منك ، فعبر دجلاً إلى شق نهر تيرى ، واتبعه قطري ، فصار إلى مدينة نهر تيرى فبنى سورها وخذق عليها ، فقال المهلب لخالد : خندق على نفسك ، فإني لا آمن عليك الليات ، فقال : يا أبا سعيد ! الأمر أعجل من ذلك ، فقال المهلب لبعض ولده : إني أرى أمراً ضائعاً ، ثم قال لزياد بن عمرو : خندق علينا ، فخذق المهلب وأمر بسفنه ففرت ، وأبى خالد أن يفرغ سفنه ، فقال المهلب لفيروز حصين : صر معنا ، فقال : يا أبا سعيد ! الحزم ما تقول ، غير أني أكره أن أفارق أصحابي ، قال : فكن بقربنا ، قال : أما هذه فتعم .

وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أن يمد خالداً بجيش كثيف ، أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ففعل ، فقدم عليه عبد الرحمن فأقام قطري يغادهم القتال ويروحهم أربعين يوماً ، فقال المهلب لمولى لأبي عبيدة : انتبذ إلى ذلك الناووس فبت عليه في كل ليلة ، فمضى أحسب خبراً من الخوارج أو حركة أو صهيل خيل فاعجل إلينا ، فجاء ليلة فقال : قد تحرك القوم ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعد قطري سفناً فيها حطب فأشعلها ناراً وأرسلها على سفن خالد ، وخرج في أدبارها حتى خالطهم ، فجعل لا يمر برجل إلا قتله ، ولا بدابة إلا عقرها ، ولا بفسطاط إلا هتكه ، فأمر المهلب يزيد ابنه فخرج في مائة فارس فقاتل وأبلى يومئذ ، وخرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأبلى بلاء حسناً ، وخرج فيروز حصين في مواليه ، فلم يزل يرميهم بالنشاب هو ومن معه ، فأثر أثرًا جليلاً ، فصرع

يزيد بن المهلب يومئذ ، وصرع عبد الرحمن ، فعامى عنها أصحابها حتى ركبها ، وسقط فيروزُ حصين في الخندق ، فأخذ بيده رجلٌ من الأزدِ فاستنقذه ، فوهبَ له فيروزُ حصينَ عشرة آلاف درهم ، وأصبح عسكرُ خالدٍ كأنه حرةٌ سوداءُ ، فجعل لا يرى إلا قتيلاً أو صريعاً ، فقال للمهلب : يا أباسعيد ! كدتنا نفتضحُ ، فقال خندقٌ على نفسك ، فإن لا تفعل عادوا إليك ، فقال : اكفني أمرَ الخندق ، فجمعَ له الأحماس ، فلم يبق شريفٌ إلا عميلٌ فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله لولا هذا الساحرُ المزونيُّ لكان اللهُ قد دمرَ عليكم . وكانت الخوارجُ تسمي المهلبَ الساحرَ ، لأنهم كانوا يديرون الأمرَ فيجدونه قد سبقَ إلى نقضِ تديروهم . فقال أعشى همدانَ لابن الأشعث في كلمةٍ طويلةٍ :

ويوم أهرأزك لا تنسه
ليس الثنا والذكرُ بالدائرِ

وقد ذكرنا في قصر الممدود ، من أن مد المقصور لا يجوزُ ، ما يغني عن إعادته .

• • •

ونذكرُ فيروزَ حصينَ لما مر من ذكره :

وكان فيروزُ حصينَ رجلاً جيدَ البيت في العجم ، كريمَ الحثيد ، مشهورَ الآباءِ ، فلما أسلم والي حصيناً ، وهو حصين بن عبد الله العنبريُّ ، من بني العنبر بن نعيم بن مرّة ، ثم من ولد طريف بن نعيم ، وكان فيروزُ حصينَ شجاعاً جواداً ، نبيل الصورة ، جهوري الصوت . وتروي الرواةُ أن رجلاً من العرب كانت أمه فتاةً ، فقاول بني عمرَ له ، فسبّوه بالعجمية ، وصر فيروزُ حصينَ ، فقال : هذا خالي ، فمن منكم له خالٌ مثله ؟ وظنّ الفتى أن فيروزَ لم يسمعها ، وسمعا فيروز ، فلما صار إلى منزله بعثَ إلى الفتى ، فاشتري له منزلاً وجاريةً ، ووهب له عشرة آلاف درهم .

ومن مآثره المعروفة أن الحجاج بن يوسف لما واقف ابن الأشعث برستقباذ

نادى منادي الحجاج : من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ، ففصل فيروز من الصف ، فصاح بالناس : من عرفني فقد اكنى ومن لم يعرفني فأنا فيروزُ حصين ، وقد عرفتم مالي و وفائي ، من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف ، فقال الحجاج : والله لقد تركني أكثرُ التلفتِ وإني لئن خاصيتي . فأتى به الحجاجُ فقال له : أنت الجاعلُ في رأس أميرك مائة ألف درهم ؟ قال : قد فعلتُ ، فقال : والله لأمهدنك ثم لأحملنك ، أين المالُ ؟ قال عندي ، فهل إلى الحياة من سبيل ؟ قال : لا ، قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمع لك المال فلعل قلبك يرق علي ! ففعل الحجاج ، فخرج فيروزُ فأحل الناس من ودائعهم ، وأعتق رقيقه ، وتصدق بماله ، ثم رُد إلى الحجاج فقال : شأنك الآن فاصنع ماشئت ، فشُد في القصب الفارسي ، ثم سل حتى شريح ، ثم نضح بالحل والملاح ، فما تأوه حتى مات .

* * *

قال أبو العباس : ومضى قطريُّ إلى كرمان ، فانصرف خالدٌ إلى البصرة ، فأقام قطريُّ بكرمان أشهراً ، ثم عمداً لفارس ، وخرج خالدٌ إلى الأهواز ، وندب للناس رجلاً ، فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالدٌ : ذهب المهلبُ بحظ هذا المصر ، إني قد وليتُ أخي قتال الأزارقة ، فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز في ثلثائة ، ومضى عبد العزيز في ثلاثين ألفاً ، والخوارجُ بدراب جرد ، فجعل عبدُ العزيز يقولُ في طريقه يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب ، فسيعلمون .

قال صعب بن زيد : فلما خرج عبدُ العزيز عن الأهواز جاءني كردوسُ حاجب المهلب فقال : أجب الأمير ، فجئتُ إلى المهلب وهو في سطحٍ وعليه ثيابٌ هرويةٌ ، فقال : يا صعبُ ! أنا ضائع ، كأنني أنظر إلى هزيمة عبد العزيز ، وأخشى أن توافيني الأزارقة ولا جند معي ، فأبعث رجلاً من قبلك يأتيني بخبرهم سابقاً به إلي ، فوجهت رجلاً يقال له عمران بن فلان ، فقلت : اصحب عسكر عبد العزيز واكتب الي بخبر يوم يوم ، فجعلتُ أورده على المهلب .

فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة ، فقال له الناس : هذا يومٌ صالحٌ ،
فينبغي أن تترك - أيها الأمير - حتى نطمئن ثم نأخذ أهبتنا ، فقال : كلا ،
إلا الأمر قريبٌ ، فنزل الناس على غير أمره ، فلم يستم النزول حتى ورد
عليهم سعد الطلائع في خمسمائة فارس ، كأنهم خيطٌ ممدودٌ ، فناهضهم عبد
العزيز ، فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدةً ، فاتبعهم ، فقال له الناس :
لا تتبعهم فإننا على غير تعبٍ ، فأبى ، فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبةً ، فافتحمها
وراءهم ، والناس ينهونه ويأبى ، وكان قد جعل على بني تميم عيسى بن طلق الصريمي
الملقب بعيس الطعان ، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مسمع القيسي ، وعلى شرطته رجلاً
من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار ، فنزلوا عن العقبة ونزل خلفهم ، وكان لهم في بطن العقبة
كمينٌ ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين . وعطف عليهم سعد الطلائع ؛ فترجل
عيسى بن طلق فقتل ، وقتل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضبيعي صاحب الشرطة ،
وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الحوارج على فرسين يقتلونهم كيف شاؤا ، وكان عبد
العزيز قد خرج معه بأم حفص ابنت المنذر بن الجارود امرأته ، فسبوا النساء
يومئذٍ ، وأخذوا أمرى لانهصى ، فقتلوه في غارٍ بعد أن شدوهم وثاقاً ، ثم سدوا
عليهم بابه حتى ماتوا فيه .

وقال رجلٌ حضر ذلك اليوم : رأيت عبد العزيز وإن ثلاثين رجلاً يضربونه
بأسياهم وما تحيك في جسده .

يقال ما أحاك فيه السيف ، وما يحيك فيه ، وما حاك ذا الأمر في صدري ،
وما حاك في صدري ، وما احتكى في صدري ، ويقال حاك الرجل في مشيته
يحيك : إذا تبختر .

ونودي على السبي يومئذٍ ، فعولي بأم حفص ، فبلغ بها رجلٌ سبعين ألفاً ،
وذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا ولحقوا بالحوارج ، ففرض لكل واحد منهم
خمسائة ، فكاد يأخذها ، فشق ذلك على قطري وقال : ما ينبغي لرجل مسلم
أن يكون عنده سبعون ألفاً ، إن هذه فتنة ، فوثب إليها أبو الحديد العبدى

فقتلها ، فأُتي به قطريُّ فقال له : يا أبا الحديد ! مهيم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين !
رأيت المؤمنين قد ترايدوا في هذه الشركة ، فغشيت عليهم الفتنة !! فقال
قطريُّ : قد أصبت وأحسن ! فقال رجلٌ من الخوارج :

كفانا فتنة عظمت وجلت بحمد الله سيف أبي الحديد
أهاب المسلمون بها وقالوا على فرط الهوى : هل من مزيد
فزاد أبو الحديد بنصل سيف رقيق الحدّ فعل فتى رشيد

قوله « أهاب » يريدُ : أعلن ، يقال أهبْتُ به : إذا دعوته ، مثل صوت ،
قال الشاعر :

أهاب بأحزان الفؤاد مهيبٌ وماتت نفوسٌ للهوى وقلوبٌ

وقوله « مهيم » حرفٌ استفهام ، معناه : ما الخبرُ وما الأمرُ ، فهو دالٌّ
على ذلك مخشوفٌ الخبر ، وفي الحديث « أن رسول الله ﷺ رأى بعبد الرحمن
ابن عوفٍ ردع خلقٍ فقال : مهيم ؟ فقال : تزوجتُ برسول الله ، فقال :
أو لم ولو بشاةٍ ، وكان تزوج على نواةٍ ، وأصحابُ الحديث يروونه « على نواةٍ
من ذهبٍ قيمتها خمسة دراهم » . وهذا خطأ وغلطٌ ، العرب تقول « نواة »
فتعني بها خمسة دراهم ، كما تقول « النش » ، لعشرين درهماً ، و « الأوقية » ،
لأربعين درهماً ، فإنما هو اسمٌ لهذا المعنى .

وكان العلاء بن مطرفٍ السعديُّ ابن عمِّ عمرو القنا ، وكان يجبُ أن
يلقاه في تلك الحروب مبارزةً ، فلحقه عمرو القنا وهو منهزمٌ ، فضحك عمروٌ
وقال متمثلاً :

تثنائي ليلقاني لقيطٌ أعام لك ابن صعصعة بن سعدٍ

ثم صاح به : انج أبا المصدى ! وكان عمرو القنا يُكنى أيضاً أبا المصدى :
وهذا البيت الذي يمثل به عمروٌ ليزيد بن عمرو بن الصعق الكلبيُّ بقوله ،
يعني لقيط بن زرارة ، وكان يطلبه .

وقوله « أعام لك ، يريد : يا عامر ، فرخم ، وإنما يريد الحي تعجباً ،
 أي لكم أعجب من تميمه للقائي ، فدعا بني عامر بن صعصعة ، وهم بنو صعصعة
 ابن معاوية بن بكر بن هوازن ، ويقال أن عامر بن صعصعة هو ابن سعد بن
 زيد مناة بن تميم ، لا ابن معاوية ، وأنهم قافلة في قيس ، ولذلك تمتعت
 بنو سعد من محاربتهم مع بني تميم يوم جبة ، ولذلك أنذرهم كرب
 بن صفوان .

وهذا البيت وضعه سيويه في باب النداء الذي معناه معنى التعجب وشبهه
 به قول الصلتان العبدى :

فيا شاعراً لا شاعر اليوم مثله جريراً ولكن في كليب تواضع
 على معنى قوله : فقه درءه شاعراً .

وكان العلاء بن مطرف قد حمل معه امرأتين له ، إحداهما من بني ضبة
 يقال لها أم جيل ، والأخرى بنت عمه ، وهي فلانة بنت عقيل ، فطلق
 الضبة وتخلص بها جميعاً يومئذ وحمل الضبة أولاً ، ففي ذلك يقول :

ألت كريباً إذ أقول ليفيتي قفوا فاحملوها قبل بنت عقيل
 ولولم يكن عثودي نضاراً لأصبحت تحرّ على المتنين أم جيل

★ ★ ★

قال الصّعب بن يزيد : بعثني المهلب لآتيه بالخبر ، فصرّت إلى قنطرة
 أربك على فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ، فلم أحسن خبراً ، فصرّت مهجراً
 إلى أن أميت ، فلما أظلمنا سمعت كلام رجل عرفته من الجهاضم ، فقلت :
 ما وراءك ؟ فقال : الشر ، قلت : فإن عبد العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما
 كان من آخر الليل إذا أنا بزهاء خمين فارساً معهم لواء : فقلت ، لواء من
 هذا ؟ فقالوا : هذا لواء عبد العزيز ، فتقدمت إليه ، فسلمت وقلت : أصلح

الله الأمير ، لا يكبرن عليك ما كان ، فإنك كنت في شرّ جندٍ وأخبت ، قال لي : أو كنت معنا ؟ قلت : لا ، ولكن كافي شاهد أمرك ، قال : كأنك كنت معنا ، قلت : أرسلني المهلب لآتيه بخبرك ، ثم تركته وأقبلت إلى المهلب ، فقال لي : يا ورائك ؟ قلت : ما يسرك ، قد هزم عبد العزيز وقلّ جيشه ! فقال : ويحك ! وما يسرني من هزيمة رجلٍ من قريشٍ وقلّ جيش من المسلمين ؟! قلت : قد كان ذاك ، ساءك أو سرّك ، فوجه رجلاً إلى خالدٍ بخبره ، قال الرجل : فلما أخبرت خالداً قال : كذبت ولوئمت ، ودخل رجلٌ من قريشٍ فكذبني ، وقال لي خالدٌ : والله لعمت أن أضرب عنقك ، قلت : أصلح الله الأمير ، إن كنت كاذباً فاقتلني ، وإن كنت صادقاً فاعطني مطرف هذا المتكلم ! فقال خالدٌ : لبئس ما أخطرت به دمك !! فما برحت حتى دخل بعض الفلّ .

وقدِمَ عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلب وكساه ، وقدِمَ معه على خالدٍ ، واستخلف ابنه حبيباً ، وقال له تحسّس عن الأخبار ، فإن أحسست بخبر الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة ، فلم يزل حبيبٌ مقيماً والأزارقة تدنو منه ، حتى بلغوا قنطرة أربك ، فانصرف إلى البصرة على نهر نوى ، فلما دخلها أعلم خالدٌ ، فغضب عليه ، واستتر حبيبٌ في بني هلال بن عامر بن صعصعة ، فتروّج هناك في استتاره الملالية أمّ عبّاد بن حبيب .

وقال الشاعر لخالدٍ يفيل رأيه ، أي يخطئه :

بعثت غلاماً من قريشٍ قرؤقةً وتترك ذا الرأي الأصل المهلبا

أبى النعم واختار الوفاء وأحكمت قراء وقد ساس الأمور وجربا

وقال الحرث بن خالدٍ المخزومي :

فر عبد العزيز لما رأى الأب طال بالسفح نازلوا قطرياً

ويروى :

فر عبد العزيز إذ راء عيسى وابن داهود نازلا قطرياً

عاهد الله إن نجا مملكتنا ليعودن بعدها حرمياً
يسكن الحلّ والصّفاح فرّاً ن وسلعاً وثورة نجدياً
حيث لا يشهد القتال ولا ين مع يوماً لكرّ خليلٍ دويّاً
قوله « إذ راء عيسى ، الأصل « رأى » ، ولكنه قلب قدّم الألف وأخر الهزّة
كما قال كثيرٌ :

وكلّ خليلٍ راءني فهو قائلٌ من أجلك هذا هامة اليوم أو غد
والقلب كثير في كلام العرب ، وسنذكر منه شيئاً في موضعه إن
شاء الله .

وقوله « مملكتنا » يريد من المنايا ، ولكنه حذف النون لقرب مخرجها من اللام ،
فكانتا كالحرفين يلتقيان على لفظٍ فيحذف أحدهما ، ومن كلام العرب أن يحذفوا
النون إذا لقيت لام المعرفة ظاهرة ، فيقولون في بني الحرث وبني العنبر وما
أشبه ذلك « بلحرث » و « بلعنبر » و « بلهجير » كما يقولون « علماء بنو
فلان » فيحذفون إحدى اللامين .

وقوله « ليعودن بعدها حرمياً » العرب تنسب إلى الحرم فيقولون « حرمي » ،
و « حرمي » على قولهم حرمة البيت وحرمة البيت ، وقال النابغة الذبياني :
من قول حرمية قالت وقد رحلوا هل في مخفيكم من يشتري أدما
و « الحل » ، هنا موضع ، وأصله الطريق في الرمل .

* * *

وكتب خالدٌ إلى عبد الملك بعنر عبد العزيز ، وقال للمهلب : ماترى عبد الملك
صانعاً بي ، قال : يعزلك ، قال : أترأه قاطعاً رحمي ؟ قال نعم ، أته
هزيمة أمية أخيك من البحرين . وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس .
قال أبو العباس : فكتب عبد الملك إلى خالد :

أما بعد ، فإني كنت حدثت لك عدداً في أمر المهلب ، فلما ملكت

أمرك نبذت طاعتي ، واستبددت برأيك ، فوليت المهلب الجلباية ، ووليت أخاك حرب الأزارقة ، فقبح الله هذا رأياً ، أتبعثُ غلاماً غراً لم يجرب الحروب للحرب ، وتتركُ سيداً شجاعاً مدبئراً حازماً قد مارس الحروب تشغله بالجلبية ؟! أما والله لو مكافأتك على قدر ذنبك لأناك من نكيري ما لا بقية لك معه ، ولكن تذكرتُ رَحِمَكَ فَلَفَسْتِي عَنْكَ ؛ وقد جعلتُ عقوبتك عزك .

وولي بشر بن مروان وهو بالكوفة وكتب إليه :

أما بعد ، فإنك أخو أمير المؤمنين ، يجمعك وإياه مروان بن الحكم ، وإن خالداً لا يجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية ، فانظر المهلب بن أبي صفرة ، فولت حرب الأزارقة ، فإنه سيدٌ بطلٌ مجربٌ ، فأمدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجلٍ .

فشق عليه ما أمره به في المهلب . وقال : والله لأقتلنه ، فقال له موسى ابن نصير : ايها الأمير ! إن للمهلب حفاظاً وبلاءً ووفاءً .

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة ، فكتب موسى وعكرمة إلى المهلب أن يتلقاه لقاءً لا يعرفه به ، فتلقاه المهلب على بغلٍ ، فسلم عليه في مخار الناس ، فلما جلس بشرٌ مجلسه قال : ما فعل أميركم المهلب ؟ قالوا : قد تلقاك ايها الأمير وهو شاكٍ .

فهم بشرٌ أن يولي حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله ، فقال له أسماء بن خارجة : إنما ولائك أمير المؤمنين لتري رأيك ، فقال له عكرمة بن ربيعة : اكتب إلى أمير المؤمنين وأعلمه علة المهلب ، فكتب إليه يعلمه علة المهلب وأن بالبصرة من يُغني غناؤه ، ووجهً بالكتاب مع وفدٍ أوفدم إليه رئيسهم عبد الله ابن حكيم المجاشعي ، فلما قرأ الكتاب خلا بعبد الله بن حكيم فقال : إن لك ديناً ورأياً وحزماً ، فمن لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلب ، قال : إنه

عليّ ، قال : ليست علة بمانعته ، قال عبد الملك : اراد بشرّ أن يفعل ما فعل خالد .

فكتب إليه يعزم عليه أن يولي المهلب ، فوجّه إليه ، قال المهلب : أنا عليّ ولا يمكنني الاختلاف ؛ فأمر بشرّ بحمل الدواوين إليه فجعل يتخفّ ، فاعترض بشرّ عليه ، فاقتطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه أن لا يقيم بعد ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم وصاروا بالقرات ، فخرج إليهم المهلب حتى صار إلى شاربطاق ، فأتاه شيخ من بني تميم فقال : أصلح الله الأمير ، إن سني ما ترى فبهني لعيالي ، قال : علي أن تقول للأمير إذا خطب فمخّكم على الجهاد : كيف تحمّنا على الجهاد وأنت تحبس أشرافنا واهل النجدة منا ؟ ففعل الشيخ ذلك ، فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ قال : لا شيء ، وأعطى المهلب رجلاً ألف درهم على أن يأتي بشراً فيقول له : ايها الأمير أعين المهلب بالشرطة والمقاتلة ، ففعل الرجل ذلك ، فقال له بشر : ما أنت وذاك ؟ قال : نصيحة تحضرتني للأمير والمسلمين ولا اعود إلى مثلها ، فأمدّه بالشرطة والمقاتلة .

وكتب بشرّ إلى خليفته بالكوفة أن يعقّد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف ، من كل رُبْع ألفين ، ويوجّه به مدداً إلى المهلب ، فلما أتاه الكتاب بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزديّ فعقد له ، واختار له من كل رُبْع ألفين ، فكان على رُبْع اهل المدينة بشر بن جرير البجليّ ، وعلى رُبْع تميم ومحمدان عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانيّ ، وعلى رُبْع كندة وربيعة محمد بن إسحق بن الأشعث الكندي ، وعلى مذحج وأسديّ زحر بن قيس المذحجيّ ، فقدموا على بشر ، فخلا بعبد الرحمن بن مخنف ، فقال له : قد عرفت رأيي فيك وثقتي بك ، فكن عند ظني ، انظر هذا المزونيّ فخالفه في أمره ، وأفسد عليه رأيه ، فخرج عبد الرحمن بن مخنف وهو يقول : ما أعجب

ماطمع مني فيه هذا الغلام ! يأمرني ان أصغر شيخاً من مشايخ أهلي وسيداً من ساداتهم ؟! فلتحق بالمهلب .

• • •

فلما أحسّ الأزارقة بدنوه منهم انكشفوا عن الفرات ، فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز ، فتفاهم عنها ، ثم تبعهم إلى رام هرمز فهزمهم منها ، فدخلوا فارس ، وأبلى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاءً حسناً ، تقدم فيه وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، فلما صار القوم بفارس وجه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صبيح : أيها الأمير ! إنه ليس برأي لك قتل هذه الأكلب ، ولئن - والله - قتلتم لتعقدن في بيتك ، ولكن طاولهم واكل بهم ، فقال : ليس هذا من الوفاء .

فلم يلبث برام هرمز إلا شهراً حتى أتاه موت بشر ، فاضطرب الجند على ابن مخنف ، فوجه إلى محمد بن إسحق بن الأشعث وابن زحر واستحلفها أن لا يبرحا ، فحلفا له ، ولم يبقا ، فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب ، فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم ، فأقام منهم قوم وتسلل منهم ناس كثير .

وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان ، فوجه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز ، يحلف فيه بالله مجتهداً ، لئن لم يرجعوا إلى مراكزم وانصرفوا عصاة لا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، فجاء مولا فجعل يقرأ الكتاب عليهم ولا يرى في وجوههم قبوله ، فقال : إني لأرى وجوهاً ما القبول من شأنها ! فقال له ابن زحر : أيها العبد ! اقرأ ما في الكتاب وانصرف إلى صاحبك ، فإنك لا تدري ما في أنفسنا ، وجعلوا يستعجلونه في قراءته ، ثم قصدوا قصداً الكوفة ، فزلوا النخلة ، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم في الدخول ، فأبى ، فدخلوها بغير إذن .

فلم يزل المهلب ومن معه من قواده وابن محنف في عدد قليل ، فلم ينشروا أن ولي الحجاج العراق ، فدخل الكوفة قبل البصرة ، وذلك في سنة خمس وسبعين ، فخطبهم ونهدهم ، وقد ذكرنا الخطبة متقدماً ، ثم نزل فقال لوجوه أهلها : ما كانت الولاية تفعل بالعصاة ؟ فقالوا : كانت تضرب وتحبس ، فقال الحجاج : ولكن ليس لهم عندي إلا السيف ، إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو سأغت المعصية لأهلها ما قوتل عدو ولا جني في ولا عز دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، فقال : قد أجلتكم ثلاثاً ، وأقسم بالله لا يتخلف أحد من اصحاب ابن محنف بعدها ولا من أهل الثغور إلا قتلته ، ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطه : إذا مضت ثلاثة أيام فاتخذوا سيوفكما عصياً ، فجاءه عمير بن ضابئ البرجمي بابه . فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا أنفع لكم مني ، هو أشد بني تميم أيداً ، وأجمعهم سلاحاً ، وأربطهم جاشاً ، وأنا شيخ كبير عليل ، واستشهد جلساءه ، فقال له الحجاج : إن عنك لواضع ، وإن ضعفك لين ، ولكنني أكره أن يجترى بك الناس علي ، وبعد فانت ابن ضابئ صاحب عثمان ، ثم أمر به فقتل ، فاحتمل الناس ، وإن أحدهم ليتبع بزاده وسلاحه ، ففي ذلك يقول ابن الزبير الأسدي :

أقول لعبد الله يوم لقيته	أرى الأمر أمسي منصباً متشبهاً
تخيراً فيما أن تزور ابن ضابئ	عميراً وإمّا أن تزور المهلبا
هما خطبنا خسف نجائك منها	ركوبك حولاً من الثلج أشبا
فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه	يد الدهر حتى يترك الطفل أشيا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه	رأها مكان السوق أو هي أقربا

وهرب سوار بن المضرب السعدي من الحجاج وقال :
أقاتلي الحجاج إن لم أزر له دراب وأترك عند هندی فؤاديا
وقد مرت هذه الأبيات .

* * *

وخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان عليهم أشدّ إلحاحاً ،
وقد كان أتاهم خبره بالكوفة ، فتحمل الناس قبل قدومه ، فأتاه رجل من بني
يشكر ، وكان شيخاً كبيراً أعور ، وكان يجعل على عينه العوراء صوفة ،
فكان يلقب ذا الكرسفة ، فقال : أصلح الله الأمير إن بي فتقاً ، وقد عذرتني
بشر ، وقد رددت العطاء . فقال : إنك عندي لصادق ، ثم أمر به فضربت
عنقه ، ففي ذلك يقول كعب الأشقر أو الفرزدق :

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربةً تقرقر منها بطن كل عريف

ويروى عن أبي ميرة قال : إنا لتغدى معه يوماً إذ جاء رجل من بني
سليم برجل يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا عاصي ، فقال : له
الرجل : أنشدك الله أيها الأمير في دمي ، فوالله ما قبضت ديوناً قط ، ولا
شهدت عسكرياً ، وإني لحائك أخذت من تحت الحف ، فقال : اضربوا عنقه ،
فلما أحس بالسيف سجد ، فلحقه السيف وهو ساجد ، فأمسكنا عن الطعام ، فأقبل علينا
الحجاج فقال : مالي أراكم صفرت أيديكم واصفرت وجوهكم وحد نظركم من قتل
رجل واحد ؟! إن العاصي يجمع خلافاً : يخل بمركزه ، ويعصي أميره ، ويغتر
المسلمين من نفسه وهو أجير لهم ، وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل ، والوالي مخير
فيه إن شاء قتل وإن شاء عفا .

ثم كتب الحجاج إلى المهلب : أما بعد ، فإن بشراً رحمه الله استكره نفسه
عليك ، وأراك غناؤه عنك ، وأنا أريك حاجتي إليك . فأرني الجد في قتال
عدوك ، ومن خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله ، فإنني قاتل من قبلي ومن كان
عندي من ولي من هرب عنك فأعلمني مكانه ، فإنني أرى أن آخذ الولي بالولي ،
والسمي بالسمي .

فكتب إليه المهلب : ليس قبلي الا مطيع ، وإن الناس إذا خافوا العقوبة
كبروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب ، وإذا يشؤا من العفو

أكفرهم ذلك ، فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة ، فإنما هم فرسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدو وتادم على ذنبه .

* * *

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه قال : اليوم قوتل هذا العدو . ولما رأى ذلك قطري قال : انهضوا بنا نريد السردان فتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أو نأتي سابور ، وخرج المهلب في آثارهم ، فأتى أرجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسردان ، وليست بمدينة ، ولكن جبالاً محدقة منيعة ، فلم يصب بها أحداً ، فخرج نحوهم فعسكر بكازرون ، واستعدوا لقتاله ، وخندق على نفسه ، ثم وجه إلى عبد الرحمن بن مخنف : خندق على نفسك ، فوجه إليه : خنادقنا سوفنا ، فوجه إليه المهلب : إني لا آمن عليك الليات ، فقال ابنه جعفر : ذاك أهون علينا من خرطة جل ! فاقبل المهلب على ابنه المغيرة فقال : لم يصيبوا الرأي ولم يأخذوا بالوثيقة ، فلما أصبح القوم غادوه الحرب ، فبعث إلى مخنف يستمده ، فأمدته بجياعة ، وجعل عليهم ابنه جعفر ، فجاؤا وعليهم أقية بيض جد ، فقاتلوا يومئذ حتى عرف مكانهم ، وحاربهم المهلب وأبلى بنوه يومئذ كبلاء الكوفيين أو أشد ، ثم نظر إلى رئيس منهم يقال له صالح بن خرقاق ، وهو يتخب قوماً من جلّة العسكر ، حتى بلغوا أربعمئة ، فقال لابنه المغيرة : ما يعد هؤلاء إلا لليات ، وانكشف الحوارج والأمر للمهلب عليهم ، وقد كثر فيهم القتل والجراح .

* * *

وقد كان الحجاج في كل يوم يتفقد العصاة ويوجه الرجال ، فكان يجبهم نهاراً ، ويفتح الحبس ليلاً ، فينسل الناس إلى ناحية المهلب ، وكان الحجاج لا يعلم ، فإذا رأى اصراعهم تمثل :

إن لها لساناً عشتورا إذا وتين وثية تغشورا

العشّور « الصُّلب » ، و « التغشمر » ركوب الرأس ، و « المتغشمر »
الجاد على ما خيلت .

وكتب إلى المهلب من قبل الوقعة : أما بعد ، فإنه بلغني أنك أقبلت على
جباية الحراج ، وتركت قتال العدو ، وإني وليّتك وأنا أرى مكان عبد الله بن
حكيم المجاشعي وعباد بن حصين الحبطي ، واخترتك وأنت من أهل عمان ، ثم
رجلٌ من الأزديّ ، فالفهم يوم كذا في مكان كذا ، والا أشرعت إليك
صدر الرمح !!

فشاور بنيه فقالوا : انه أميرٌ ، فلا تغلظ عليه في الجواب .

فكتب إليه المهلب : ورد علي كتابك تزعم أنني أقبلت على جباية الحراج
وتركت قتال العدو ، ومن عجز عن جباية الحراج فهو عن قتال العدو أعجز ،
وزعمت أنك وليّتي وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم المجاشعي وعباد بن
حصين الحبطي ، ولو وليّتها لكنا مستحقين لذلك في فضلها وغنائها وبطشها ،
واخترتني وأنا رجلٌ من الأزديّ ، ولعمري ان شرّاً من الأزديّ لقيلة تنازعها
ثلاث قبائل ، لم تستقر في واحدةٍ منهن ، وزعمت أنني ان لم الفهم في يوم كذا في مكان كذا
أشرعت إلى صدر الرمح ، فلو فعلت لقلت إليك ظهر المجنّ ، والسلام .

ثم كانت الوقعة . فلما انصرف الحوارج قال المهلب لابنه المغيرة : إني
أخافُ اليات على بني تميم ، فانهض إليهم فكنّ فيهم ، فأقام المغيرة ، فقال له
الحريش بن هلال : يا أبا حاتم ! أخاف الأمير أن يؤتى من ناحية ؟ قل له
فليبب آمناً فإنّا كافر به ما قبلنا إن شاء الله . فلما انتصف الليل ، وقد رجع
المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن عخرّاق في القوم الذين أعدّهم إلى ناحية بني تميم ،
ومعه عيدة بن هلال وهو يقول :

إني لمذكٍ للشراة نارها ومانعٌ ممّن أتاها دارها

وغاسلٌ بالطعن عنها عارها

فوجد بني تميم أبقاظاً متحارسين ، فخرج إليهم الحريش بن هلال ،
وهو يقول :

لقد وجدتم وُقْرًا أنجادا لا كُشْفًا مِلاً ولا أوغادا
هيات لا تلفوتنا رُقّادا لا بل إذا صيح بنا آسادا

ثم حمل على القوم فرجعوا عنه ، فاتبعهم وصاح بهم : إلى أين يا كلاب
النار ؟ فقالوا : إنما أعدت النار لك ولأصحابك . فقال الحريش : كل
مملوك لي حرٌّ إن لم تدخلوا النار إن دخلها مجوميّ فيما بين سفوان وخراسان .

قوله « وجدتم وُقْرًا » : جمع وُقور . و « التّجبد » ضد البليد ، وهو
المتيقظ الذي لا كل عنده ولا فتور . و « الأمل » فيه قولان ؛ قالوا :
الذي لا يستقرّ على الدابة ، وقالوا : هو الذي لا سيف معه . و « الأكشف »
الذي لا تُرْس معه . و « الأجم » الذي لا رُمع معه . و « الحاسر » الذي لا درع
عليه . و « الأعزل » الذي لا يتقوم على ظهر الدابة . و « الوغد » الضعيف .

ثم قال بعضهم لبعض : نأني عسكر ابن مخنف فإنه لا خندق عليهم ، وقد
تعب فرسانهم اليوم مع المهلب ، وقد زعموا أننا أهون عليهم من شرطة جمل ،
فأتوهم ، فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه بهم إلا وقد خالطوهم في عسكرهم ،
وكان ابن مخنف شريفاً ، يقول رجلٌ من غامدٍ لرجلٍ يعاتبه ويضربُ بابن
مخنف المثل :

تروح وتغدو كلّ يومٍ معظماً كأنك فينا مخنفٌ وابن مخنف

فترجل عبد الرحمن بن مخنف فجالدم فقتل ، وقتل معه سبعون من القراء ،
فيهم نفرٌ من أصحاب عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه ، ونفرٌ من أصحاب
ابن مسعود ، وبلغ الخبر المهلب ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف عند المهلب ،
فجاءهم مغيباً ، فقاتلهم حتى ارتث وصرع ، ووجه المهلب إليهم ابنة حياً فكشفهم ،
ثم جاء المهلب حتى صلى على ابن مخنف وأصحابه رحمهم الله ، وصار جنده

في جندِ المهلبِ ، فضمهم إلى ابنه حبيبٍ ، فعيروهم البصريون ، فقال رجلٌ لجعفر ابن عبد الرحمن :

تركت أصحابنا تدمي نخورهم وجئتَ تسعى إلينا خضفة الجملِ
قوله « خضفة الجملِ » يريد خرطة الجملِ ، يقال خضفَ البعيرُ ، وأنشدني
الرياشيُّ لأعرابيٍّ يذمُّ رجلاً اتخذ وليمةً :

إنا وجدنا خلفاً بشى الخلفِ أغلقَ عنا بابهُ ثم حلف
لا يدخلُ البابُ إلا من عرفَ عبدٌ إذا ما ناء بالجملِ خضفُ
يقال « ناء بجمله » إذا حمله في ثقلٍ وتكلفٍ ، وفي القرآن : (ما إن
مفاتيحه لتتوء بالعصبة أُولي القوة) والمعنى أن العصبة تتوء بالمفاتيح ، وقد مضى
تفسير هذا ، وتقول العرب « حيج الرجل وحبق وخضف وردد » كل ذلك
إذا ضرت .

فلامهم المهلب ، وقال : بشى قلم ، واثر ما فروا ولا جبنوا ، ولكنهم
خالفوا أميرهم ، أفلاتذكرون فراركم يوم دولا ب ، وفراركم بدارس عن عثمان ،
وفراركم عني ؟!

* * *

ووجه الحجاجُ البراء بن قبيصة إلى المهلبِ يستحثُّه في مناجزة القوم ،
وكتب إليه أنك لتحبُّ بقاءهم لتأكلَ بهم . فقال المهلبُ لأصحابه : حرِّكوهم ،
فخرج فرسانٌ من أصحابه إليهم ، فخرج إليهم من الخوارج جمعٌ ، فاقتلوا إلى
الليل ، فقال لهم الخوارج : ويلكم أما تملئون ؟ فقالوا : لا ، حتى تملأوا ،
قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : نعيمٌ ، قالت الخوارج : ونحن بنو نعيم ، فلما أمسوا
افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرةٌ من أصحاب المهلبِ وخرج إليهم عشرة
من الخوارج ، فاحتفر كل واحدٍ منهم حفيرةً وأثبت قدمه فيها ، فكلما قُتلَ
رجلٌ جاء رجلٌ من أصحابه فاجتره ووقف مكانه ، حتى أعتموا ، فقال لهم

الخوارجُ : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ! من أنتم ؟
فقالوا : تميم ، قالوا : ونحن تميم ، فرجع البراءُ بن قبيصة إلى الحجاج ، فقال
له : مه ؟ قال : رأيت قوماً لا يعينُ عليهم إلا الله .

وكتب إليه المهلب : إني منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موتٌ ذريعٌ ، أو جوعٌ
مضرٌ ، أو اختلافٌ من أهوائهم .

وكان المهلب لا يتكل في الحراسة على أحدٍ ، كان يتولى ذلك بنفسه ،
ويستعين بولده وبمن يحل محلهم في الثقة عنده .

وقال أبو حرمة العدي يهجو المهلب :

عدمك يامهلب من أميرٍ أما تندي يمينك للفقيرِ
بدولابٍ أضعت دماءَ قومٍ وطررت على مواشكةٍ درورِ

فقال المهلبُ ويحك ! والله اني لأفكم بنفسي وولدي ، قال : جعلني الله
فداء الأمير ، فذاك الذي نكره منك ، ما كلننا بحبٍ الموت ، قال ويحك ! وهل
عنه محيصٌ ؟ قال : لا ، ولكننا نكره التعجيل ، وأنت تقدم عليه إقداماً ،
قال المهلب : أما سمعت قول هيرة الكلجة اليربوعي :

فقلت لكأسٍ أجميها فإنما نزلنا الكئيب من زرود لتفرعاً ؟

قال : بلى والله قد سمعته ، ولكن فولي أحب الي منه ، وهو :

فلما وقفت غدوةً وعدوكم الى مبهجتي ولست أعداءكم ظهري
وطرت ولم أحفلُ مقالة عاجزٍ يسافي المنايا بالرؤدنية السمرِ

فقال له المهلبُ : بش حشو الكتية والله أنت ! فإن شئت أذنت لك
فانصرفت الى أهلك ؟ فقال : بل أقيم معك أيها الأمير ، فوهب له المهلبُ
وأعطاه ، فقال بمدحه :

يرى حتماً عليه أبو سعيدٍ جلادَ القوم في أولى النفيرِ
إذا نادى الشراةُ أبا سعيدٍ مشى في رقلٍ مُحكمةٍ القيرِ

« الرقل » الذئيل .

وقال المهلب: ما يسرني أن في عسكري ألف شجاع بدل بييس بن صهيب ،
فيقال له : أيها الأمير ! بييس ليس بشجاع ، فيقول : أجل ، ولكنه شديد
الرأي محكم العقل ، وذو الرأي حذر مؤول ، فأنا آمن أن يغتفل ، فلو كان
مكانه ألف شجاع قلت أنهم ينشامون حتى يحتاج إليهم .

ومطرت السماء ليلة مطراً شديداً وهم يسابور ، وبين المهلب وبين الشراة
عقبة ، فقال المهلب : من يكفينا هذه العقبة الليلة ؟ فلم يقم أحد ، فلبس
المهلب سلاحه وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة . فقال رجل من أصحابه
يقال له عبد الله : دعانا الأمير إلى ضبط العقبة ، والحظ في ذلك لنا ، فلم نطعه ،
فلبس سلاحه واتبعه جماعة من أهل العسكر فصاروا إليه ، فاذا المهلب والمغيرة
لا تالك لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأمير فنحن نكفيك إن شاء الله ، فلما
أصبحوا إذا بالشراة على العقبة ، فخرج إليهم غلام من أهل عمان على فرس ، فجعل
يحمل وفرسه يزلق ، وتلقاه مدرك بن المهلب في جماعة معه حتى ردهم .

فلما كان يوم النحر والمهلب على المنبر يخاطب الناس إذا الشراة قد تألبوا ،
فقال المهلب : سبحان الله ! أفي مثل هذا اليوم ؟ يا مغيرة اكفينهم ، فخرج
إليهم المغيرة بن المهلب وأمامه سعد بن نجدة القردوسي ، وكانت سعد بشجاعاً
متقدماً في شجاعته ، وكان المهلب إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبه قال
له : لو كنت سعد بن نجدة القردوسي ما عدا - وقردوس من الأزدي - فخرج
أمام المغيرة ، وتبع المغيرة جماعة من فرسان المهلب ، فالتقوا ، وأمام الخوارج
غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كريب الوجه ، شديد الحملة ، صبيح الفروية ،
فأقبل يحمل على الناس وهو يقول :

نحن صبحناكم غداة النحر بالحلل أمثال الوشيح فجري

فخرج إليه سعد بن نجدة القردوسي من الأزدي ، ثم تجاوزا ساعة ، فطعنه سعد
فقتله ، والتقى الناس ، فصرع يومئذ المغيرة ، فحامي عليه سعد بن نجدة وذيان
السختياني وجماعة من الفرسان حتى ركب ، وانكشف الناس عند سقطة

المغيرة ، حتى صاروا إلى أبيه المهلب ، فقالوا : قتل المغيرة ، ثم أتاه ذبيان
السَّخْيَانِي ، فأخبره بسلامته ، فأعْتَقَ كُلَّ مَمْلُوكٍ كان بحضرته .

* * *

ووجهَ الحجاج الجراحَ بن عبد الله إلى المهلب يستبطنه في مناجزة القوم ،
وكتبَ إليه : أما بعد ، فإنك جيتَ الجراح بالعليل ، وتحصنت بالحنادق ،
وطاولتَ القومَ ، وأنت أعز ناصراً ، وأكثر عدداً ، وما أظن بك مع هذا
معصية ولا جبناً ، ولكنك اتخذت أكلًا ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ،
فناجزهم وإلا أنكرتني ، والسلام .

فقال المهلب للجراح : يا أبا عقبة ! والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا
مكيدة إلا عملتها ، وما العجب من إبطاء النصر وتراخي الظفر ، ولكن
العجب أن يكونَ الرأي لمن يملكه دونَ من يصيره !! ثم ناهضهم ثلاثة أيام ،
يغاديهم القتال ، ولا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرحٌ ،
وبالحوارج قرحٌ وقتلٌ ، فقال له الجراح : قد أعذرت .

فكتبَ المهلبُ إلى الحجاج : أثنائي كتابك تستبطنني في لقاء القوم ، على
أنك لا تظن بي معصية ولا جبناً ، وقد عاتبني معاتبة الجبان ، وأوعدتني وعيدَ العاصي ،
فاسئل الجراح ، والسلام .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟ قال والله مارأيت أيها الأمير
مثله قط ولا ظننت أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدت أصحابه
أياماً ثلاثة يغدون إلى الحرب ثم ينصرفون عنها وهم بها يتطاعنون بالرماح ويتجالدون
بالسيوف ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً ، رواح قوم
تلك عاداتهم وتجارهم . فقال له الحجاج : لشد ما مدحته أبا عقبة ! قال :
الحق أولى .

وكانت ركب الناس قديماً من الحشب ، فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع ،
فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد ، فأمر المهلب فضربت الركب
من الحديد ، وهو أول من أمر بطبعها ، ففي ذلك يقول عمار بن
عصام العنزي :

ضربوا الدوام في إمارتهم وضربت للحدثان والحرب
حلقاً ترى منها مرافقهم كمنالك الجمالة الجرب

* * *

وركب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي ، من بني رياح بن يربوع بن
حنظلة ، وهو والي أصبهان : يأمره بالسير إلى المهلب وأن يضم إليه جند عبد
الرحمن بن مخنف ، فكل بلد تدخله من فتوح أهل البصرة فالمهلب أمير الجماعة
فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلت بلداً فتحه لأهل الكوفة فأنت أمير
الجماعة فيه ، والمهلب على أهل البصرة .

نقدم عتاب في إحدى جماديين من سنة ست وسبعين على المهلب ، وهو
بسابور ، وهي من فتوح أهل البصرة فكان المهلب أمير الناس ، وعتاب على
أصحاب ابن مخنف ، والحوارج في أيديهم كرمان ، وهم يزاو المهلب بفارس
يجاربونه من جميع النواحي .

فوجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحثانه مناجزة القوم ، أحدهما يقال له
زياد بن عبد الرحمن ، من بني عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبي ع قيل
جد الحجاج ، فضم زياداً إلى ابنه حبيب ، وضم الثقفي إلى يزيد ابنه ، وقال
لهما : خذا يزيد وحيياً بالمناجزة ، فغادوا الحوارج فاقتلوا أشد قتال ، فقتل
زياد بن عبد الرحمن ، وفقد الثقفي ، ثم باكروهم في اليوم الثاني وقد وجد الثقفي
فدعا به المهلب ودعا بالغداء ، فجعل النبل يقع قريباً منهم ، والثقفي يعجب من
أمر المهلب ، فقال الصلتان العبدى :

ألا يا أصبحاني قبل عوق العواتق وقبل اختراط القوم مثل العقائق

غداة حبيبٌ في الحديد يقودنا

تحرون إذا ما الحرب طار شرارها

فمن مبلغ الحجاج أن أميته

نحوض المنيأ في ظلال الخوافق

وهاج عجاج الحرب في البوارق

زفاداً أطلحته رماح الأزارق

قوله « وقبل اختراط القوم مثل العقائق » يعني السيوف و « العقائق »

جمع عقيقة ، يقال سيف كأنه عقيقة يرق ، أي كأنه لمعة يرق ، ويقال انعق

البرق إذا تبسم ، وللعقيقة مواضع ، يقال فلان بعقيقة الصبي ، أي بالشعر

الذي ولد به لم يخلقه ، ويقال عقت الشيء أي قطعته ، ومن ذا فلان يعق

أبويه ، وكذا عقت عن الصبي ، إذا ذبحت عنه ، وقال أعرابي :

ألم تعلمي يادارَ يلجاء أنني

أحبُّ بلادَ الله ما بين مشرفِ

بلادَها عَقَّ الشابُ نيمتي

إذا أجديت أو كان خصباً جنبها

إلى وسلمى أن يصب سحابها

وأول أرض مس جلدِي ثرابها

فلم يزل عتابُ بن ورقاء مع المهلب ثمانية أشهر ، حتى ظهر شبيب ،

فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمصير إليه ليوجهه إلى شبيب ، وكتب إلى

المهلب يأمره بأن يرزق الجند ، فرزق المهلب أهل البصرة ، وأبى أن يرزق

أهل الكوفة ، فقال له عتاب : ما أنا ببارح حتى ترزق أهل الكوفة ، فأبى ،

فجرت بينها غليظة ، فقال عتاب : قد كان يبلغني أنك شجاع فرأيتك جباناً ،

وكان يبلغني أنك جواد فرأيتك بخيلاً ، فقال له المهلب : يا ابن اللئناء ! فقال

له عتاب : لكنك معمٌ مخول !! فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف ،

ووثب ابنُ نعيم بن هيرة بن أبي مصقلة على عتاب فشمه ، وقد كان المهلب

كلهاً للحلف ، فلما رأى ثورة بكر بن وائل له سرّة الحلف واعتبط به ،

ولم يزل يؤكّده ، فغضبت عيمُ البصرة لعتاب ، وغضبت أزدُ الكوفة للمهلب .

قال أبو العباس : تحالف الأزدُ وربيعة بعد الإسلام ، وادّعوا أن ذلك

كان قديماً في الجاهلية ، لقول النبي عليه السلام : « لا حلف في الإسلام ، وكل

حلف في الجاهلية فلن يزيد الإسلام إلا شدة » . والحلفُ العهد والصحة ،

والخليفة صاحب . وإنما نهى رسول الله ﷺ عن الحلف في الإسلام لثلاثين مسلم على مسلم ، فأما ما مضى فقد ثبت به حرمة لا يزيدوها الإسلام إلا شدة .
فلما رأى ذلك المغيرة بن المهلب مشى بين أبيه وبين عتاب ، فقال لعتاب : يا أبا ورقاء ! إن الأمير يصير لك إلى كل ما تحب ، وسأل أبا أن يرزق أهل الكوفة ، فأجابه ، فصلح الأمر ، فكانت تميم قاطبة وعتاب بن ورقاء يحمدون المغيرة بن المهلب ، وقال عتاب : إني لأعرف فضله على أبيه ، وقال رجل من الأزد من بني إيلاد بن سودة :

ألا أبلغ بني ورقاء عنا قلولا أننا كنا غضابا
على الشيخ المهلب إذ جفانا للاقته خيلكم منا ضرابا

• • •

وكان المهلب يقول لبيه : لا تبدوهم بقتال حتى يبدوكم فيبغوا عليكم ، فإنهم إذا بغوا نصرتهم عليهم .

فشخص عتاب بن ورقاء إلى الحجاج في سنة سبع وسبعين ، فوجهه إلى شيب ، فقتله شيب ، وأقام المهلب على حربهم ، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهراً اختلفوا .

وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حداداً من الأزارقة كان يعمل نصالاً مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطري فقال : ألق هذا الكتاب في عسكر قطري واحذر على نفسك ، وكان الحداد يقال له أبزى ، فضى الرسول ، وكان في الكتاب : أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلي ، وقد وجهت إليك بألف درهم ، فاقبضها وزدنا من هذه النصال . فوقع الكتاب والدرهم إلى قطري ، فدعا بأبزى ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدري ، قال : فهذه الدرهم ؟ قال : ما أعلم عليها ، فأمر به فقتل ، فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له : أقتلت

رجلاً على غير ثقةٍ ولا تبينٍ ؟! فقال له : ما حالُ هذه الدرام ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذِباً ويجوز أن يكون حقاً ، فقال له قطريُّ : قتلُ رجلٍ في صلاح الناس غيرُ منكرٍ ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتسكَّر له عبد ربه في جماعةٍ معه ، ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلب فدنَّ إليه رجلاً نصرانياً ، فقال له : إذا رأيت قطرياً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل : إنما سجدتُ لك ، ففعل النصرانيُّ ، فقال له قطري : إنما السجودُ لله ، فقال : ما سجدت إلا لك ، فقال له رجلٌ من الخوارج : قد عبدك من دون الله ، وتلا : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم ، أنتم لها واردون) فقال قطريُّ : إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى ابن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئاً ، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذمياً ؟! فاختلفت الكلمة فبلغ ذلك المهلب ، فوجه إليهم رجلاً يسألهم عن شيء تقدَّم به إليه ، فأقام الرجلُ فقال : رأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما في الطريق وبلغكم الآخرُ فامتحنتموه فلم يميز المحنة ، ماتقولون فيها ؟ فقال بعضهم : أما الميتُ فمؤمنٌ من أهل الجنة ، وأما الآخرُ الذي لم يميز المحنة فكافرٌ حتى يميزها ، وقال قومٌ آخرون : بل هما كافران حتى يميزا المحنة ، فكثر الاختلافُ .

• • •

فخرج قطري إلى حدود إصطخر ، فأقام شهراً والقومُ في اختلافهم ، ثم أقبل ، فقال لهم صالح بن خرقاء : يا قوم ! إنكم قد أقررتم أعين عدوكم وأطعتموهم فيكم ، لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا فنادى : يا أيها المحلثون : هل لكم في الطراد فقد طال العهد به ؟ ثم قال :

ألم ترَ أنا منذ ثلاثون ليلةً قريبٌ وأعداءُ الكتاب على خفصٍ

فتهايج القوم وأصرع بعضهم إلى بعض ، فأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب ،
وصار في وسط الأزارقة ، فجعلت الرماح تحطئه وترفعه ، واعتورت رأسه
السيف ، وعليه ماعد حديد ، فوضع يده على رأسه ، فجعلت السيف
لا تعمل فيه شيئاً ، واستتقذه فرسان من الأزد بعد أن صرع ، وكانت الذي
صرعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

أنا ابن خير قومه هلال
شبح على دين أبي بلال
وذاك ديني آخر الليالي

فقال رجل للمغيرة : كئنا نعجب كيف تُصرع ، والآن نعجب كيف
تُنجو !!

وقال المهلب لبيه : إن سرحكم لغار ، ولست آمنهم عليه ، أفوكلتم به
أحداً ؟ قالوا : لا ، فلم يستم الكلام حتى أتاه آت فقال : إن صالح بن خرق
قد أغار على السرح ، فشق ذلك على المهلب ، وقال : كل أمر لا إليه بنفسه
فهو ضائع ، وتدمر عليهم ، فقال له بشر بن المغيرة : أرح نفسك ، فإن كنت
إنما تريد مثلك فوالله لا يعدل أحداً شيع نعلك ، فقال : خذوا عليهم الطريق ، فثار
بشر بن المغيرة ومدرئ والمفضل ابنا المهلب ، فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا
رجل أسود من الأزارقة يشل السرح ، أي يطرده ، وهو يقول :

نحن قمناكم بشل السرح وقد نكأنا القرح بعد القرح

« الشل » الطرد . ويقال « نكأت القرحة » مهموز ، و « نكيت
العدو » غير مهموز من النكابة ، و « نكأت القرحة نكاً » قال ابن
هرمة :

ولا أراها تزال ظالمة
تحدث لي قرحة وتكؤها

ولحقه المفضل ومدرئ ، فصاحا برجل من طيء : اكفنا الأسود ، فاعتوره
الطائي وبشر بن المغيرة فقتلاه ، وأمر رجلاً من الأزارقة ، فقال له المهلب :
بمن الرجل ؟ قال : رجل من همدان ، قال : إنك لشين همدان ، وخلي سبيله .

قال : وكان عياش الكندي شجاعاً نبياً . فأبلى يومئذٍ ، ثم مات على فراشه بعد ذلك . فقال المهلب : لا وآلت نفس الجبان بعد عياش .
وقال المهلب : ما رأيت كهؤلاء كلما ينقص منهم يزيد فيهم .

• • •

ووجه الحجاج إلى المهلب رجلين ، أحدهما من كلب ، والآخر من سليم ، يستحثانه بالقتال ، فقال المهلب متملاً :
ومستعجب بما يرى من أمانتنا ولو زينته الحرب لم يترمزم
الشعر لأوس بن حجر .

وقوله « زينته » يقول : دفعته . و « لم يترمزم » أي لم يتحرك ، يقال :
قيل له كذا وكذا فما ترمزم .

وقال لي زيد : حرّكهم ، فحرّكهم فتهايجوا ، وذلك في قرية من قرى
إصطخر ، فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب فطعنه ، فشك
فخذه بالسرج ، فقال المهلب للسلمي والكلي : كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم ؟
وحمل يزيد عليهم وقد جاء الرقاد ، وهو من فرسان المهلب وهو أحد بني
مالك بن ربيعة ، على فرس له أدم ، وبه سيف وعشرون جراحة ، وقد وضع
عليها القطن ، فلما حمل يزيد ولى الجمع وحمام فارسان ، فقال يزيد لقيس الحثني
موثي العتيك : من لهذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليها ، فعطف عليه أحدهما ،
فطعنه قيس الحثني فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه ، فسقطا جميعاً إلى الأرض ،
فصاح قيس الحثني ، اقتلونا جميعاً ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزوا
بينها ، فإذا معانقه امرأة ! فقام قيس مستعياً ، فقال له يزيد : أما أنت
فبارزتها على أنها رجل ، فقال : رأيت لو قُتلتُ أما كان يقال قتلته امرأة ؟ !

وأبلى يومئذٍ ابن المنجب السدومي ، فقال له غلام له يقال له خلاج : والله
لوددنا أنا فضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرهم فأستلب مما هناك جاريتين ،

فقال له مولاه : وكيف تمت اثنتان ؟ قال : لأعطيك إحداهما وأخذ الأخرى !
فقال ابن المنجب :

أخلاج إنك لن تعانق طفلةً شرقاً بها الجادي كالتّمثال
حتى تلاقي في الكتية معلماً عمرو القنا وعيدة بن هلال
وترى المقطر في الكتية مقدماً في عصبة قسطوا مع الضلال
أو أن يُعلمك المهلب غزوةً وترى جبالا قد دنت لجبال

* * *

قوله « طفلة » يقول فاعمة ، وإذا كسرت الطاء فقلت « طفلة » فهي الصغيرة . و « الجادي » الزعفران . « الكتية » الجيش ، وإلما سمي الجيش كتية لا تضام أهل بعضهم إلى بعض ، وبهذا سمي الكتاب ، ومنه قولهم كتبت البغلة والناقة إذا خرزت ذلك الموضع منها وكتبت القرية . و « المعلم » الذي قد شهر نفسه بعلامة ، إما بعلامة صبيغ ، وإما بشهرة ، وإما بغير ذلك . وكان حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه معلماً يوم بدر بريشة نعامة في صدره ، وكان أبو دجاجة ، وهو سماك بن خرشة الأنصاري ، يوم أحد لما قال رسول الله ﷺ « من يأخذ سيفي هذا بحقه ؟ » قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن يضرب به في العدو حتى ينحني ، فقال أبو دجاجة : أنا ، فدفعه إليه ، فلبس مشهرة فأعلم بها ، وكان قومه يعلمون لما بلوا منه أنه إذا لبس تلك المشهرة لم يبق في نفسه غاية ، ففعل ، وخرج يمشي بين الصّفين ، فقال رسول الله ﷺ : إنها لمشية يغضها الله عز وجل إلا في مثل هذا الموضع ، وروى « أن رسول الله ﷺ سمع علياً صلوات الله عليه يقول لفاطمة ورمى إليها سيفه فقال : هاك حميداً فاغسلي عنه الدم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدقته معك سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصّمة ، وفي بعض الحديث « وقيس بن الربيع ، وكل هؤلاء من الأنصار .

★ ★ ★

عاد الحديث إلى ذكر الخوارج

وعمر بن القنا من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بني يشكر بن بكر بن وائل ، والذي طعن صاحب الملب في فخذة فشكها مع الشرج من بني تميم ، قال : ولا أدري أعمر أو أم غيره ، والمقطر من عبد القيس .

وقوله « قسطوا ، أي جاروا ، يقال قسط يقسط فهو قاسط » ، إذا جار ، قال الله جل ثناؤه : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) . ويقال أقسط يقسط فهو مقسط ، إذا عدل ، قال الله تعالى : (إن الله يحب المقسطين) . وكان بدر بن المذنب شجاعاً ، وكان لحانة ، فكان إذا أحس بالخوارج نادى : يا خيل الله اركبي ! وله يقول القائل :

وإذا طلبت إلى الملب حاجة عرضت توابع دونه وعيد
العبد كردوس وعبد مثله وعلاج باب الأحرار شديداً

« كردوس » ، رجل من الأزد ، وكان حاجب الملب . وقوله « وعلاج باب الأحرار شديداً » ، العرب تسمى العجم الحمراء ، وقد مرّ تفسير ذا . وقوله « توابع » أراد به الرجال ، فجاز في الشعر ، وإنما رده إلى أصله للضرورة ، وما كان من النعوت على « فاعل » ، فجمعه « فاعلون » ، لا يلتبس بجمع « فاعلة » التي هي نعت ، وقد قلنا في هذا ولم قالوا « فوارس » ، و « هالك » في المراكب .

وكان بشر بن المغيرة أبلى يومئذ بلاة حسناً عرف مكانه فيه ، وكانت بينه وبين بني الملب جفوة ، فقال لهم : يا بني عم ! اني قد قصرت عن شكاة العاتب ، وجاوزت شكاة المستعيب ، حتى كاني لا موصول ولا محروم ، فاجعلوا لي فرجة أعش بها ، وهبوني امرأة رجوتكم نصره أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ، وكلموا فيه الملب فوصله .

وولى الحجاج كردماً فارس ، فوجه الحجاج إليها والحرب قائمة ، فقال رجل
من أصحاب المهلب .

ولو رأها كردم لكردما كردمة العير أحسن الضيغ
« الضيغ ، الأسد . » والكردمة ، الثفور .

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر ودَرَّاب جرَّد
لأرزاق الجند ، ففعل ، وقد كان قطريُّ هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا
يكتبون المهلب بأخباره ، وأراد مثل ذلك بمدينة فسا ، فاشتراها منه آزاد
مرَّد بن الهرثيد بمائة ألف درهم فلم يهدمها ، فواقعه المهلب فهزمه ، ونفاه إلى
كرمان واتبعه ابنه المغيرة ، وقد كان دفع إليه سيفاً وجه به الحجاج إلى
المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلد به ، فرجع
به المغيرة إليه وقد دمَّاه ، فسرَّ المهلب بذلك وقال : ما سرُّني أن أكون
كنت قد دفعته إلى غيرك من ولدي ، اكفني جباية خراج هاتين الكورتين ،
وضمَّ إليه الرُّقاد ، فجعلنا يحيان ولا يعطيان الجند شيئاً ، ففي ذلك يقول رجل
منهم ، وأحسبه من بني نعيم ، في كلمة له :

ولو علم ابنُ يوسف ما نلاقي من الآفات والكُرب الشَّدادِ
لغاضت عينه جزعاً علينا وأصلح ما استطاع من الفسادِ
ألا قلُّ للأميرُ بُجْزيتَ خيراً أرحنا من مغيرة والرُّقادِ
فما رزقا الجنود بها قفيزاً وقد ساست مطامير الحصادِ

يقال « ساس الطعام وأساس » إذا وقع فيه السُّوس ، و « دادَ وأداد » من
الدَّود . وروى أبو زيد « ديدَ فهو مدودٌ » في هذا المعنى .

فحاربهم المهلب بالسَّيرجان حتى تقام عنها إلى جيرفت ، واتبعهم قتل قريباً
منهم ، واختلفت كلمتهم .

وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال الشكريّ اتهم بامرأة رجلٍ حداديّ وأوه مراراً يدخل منزله بغير إذنٍ ، فأتوا قطرياً فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ، فقالوا : إنا لانقارُهُ على الفاحشة ، فقال : انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيده فأخبره وقال : إنا لانقارُهُ على الفاحشة ، فقال : يَهْتَوِي يا امير المؤمنين ! فما ترى ؟ قال : إني جامعٌ بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا تتناول تطاول البريء ، فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال : بسم الله الرحمن الرحيم (إنَّ الذين جاءُوا بالإفكِ مُعَصِّبَةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيراً لكم) الآيات ، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه ، وقالوا : استغفر لنا ، ففعل ، فقال لهم عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة : والله لقد خدعكم ! فبايع عبد ربه منهم ناسٌ كثيرٌ لم يُظهروا ولم يجدوا على عبيدة في إقامة الحد ثبَتاً .

• • •

وكان قطريٌ قد استعمل رجلاً من الدَّهَّاقين فظهرت له أموالٌ كثيرةٌ ، فأتوا قطرياً فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارُ عماله على مثل هذا ، فقال قطريٌ : إني استعملته وله ضياعٌ وتجاراتٌ ، فأوعز ذلك صدورهم ، وبلغ ذلك المهلب فقال : إن اختلافهم أشد عليهم مني .

وقالوا لقطريٍّ : ألا تخرج بنا إلى عدونا ! فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذب وارتدَّ ! فاتبعوه يوماً فأحسَّ بالشرِّ ، فدخل داراً مع جماعة من أصحابه ، فصاحوا به : يادابة اخرج إلينا !! فخرج إليهم ، فقال : رجعتُم بعدي كفاراً ؟! فقالوا أو لست دابة ؟ قال الله عز وجل : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ولكنك قد كفرت بقولك أنا قد رجعنا كفاراً ، فنبَّأ إلى الله عز وجل ، فشاور عبيدة ، فقال : ان تُبَيِّن لم يقبلوا منك ، ولكن قل : إنما استفهمت فقلت أرجعتُم بعدي كفاراً ، فقال ذلك لهم فقبلوه منه ، فرجع إلى منزله ، وعزم أن يبايع المقعطرَ العبدى ، فكرهه القوم وأبوه فقال

له صالح بن مخراق عنه وعن القوم : ابغ لنا غير المقطر ، فقال لهم قطري :
أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوكم ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم
واستعدوا للقاء القوم ، فقال له صالح بن مخراق : ان الناس قبلنا قد ساموا
عثمان بن عفان أن يعزل عنهم سعيد بن العاصي ففعل ، ويجب على الإمام أن
يعفي الرعية بما كرهت ، فأبى قطري أن يعزله ، فقال له القوم : انا خلعتك
وولينا عبد ربه الصغير ، فانفصل الى عبد ربه أكثر من الشطر ، وجلهم الموالي
والعجم ، وكان هناك منهم ثمانية آلاف ، وهم القراء ، ثم ندم صالح بن مخراق
فقال لقطري : هذه نعمة من نفعات الشيطان فأعفنا من المقطر وسر بنا الى
عدوك ، فأبى قطري الا المقطر ، فحمل قسي من العرب على صالح بن مخراق
فطعنه فأنفذه وأجره الرمح فقتله .

ومعنى « أجره الرمح » طعنه وترك الرمح فيه ، قال عنترة :

وآخر منهم أجروا رحي وفي البجلي معبة وقبع

فشبت الحرب بينهم ، فتهابوا ، ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم ، فلما كان
الغد اجتمعوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فأجلت الحرب عن ألفي قتيل ، فلما كان
الغد باكروهم القتال ، فلم يتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب من المدينة ،
وأقام عبد ربه بها ، وصار قطري خارجاً من مدينة جيوفت يإزائهم ، فقال له
عيبة : ياأمير المؤمنين ! إن أمت لم آمن هذه العبيد عليك إلا أن تخندق ،
فخندق على باب المدينة ، وجعل يناوشهم .

وارتحل المهلب فكان منهم على ليلته ، ورسول الحجاج معه يستحثه ، فقال
له : أصلح الله الأمير ، عاجلهم قبل أن يسطلحوا ، فقال المهلب : إنهم لن يسطلحوا .
ولكن دعهم ، فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلحون معها ، ثم دس رجلاً من
أصحابه فقال : إيت عسكر قطري فقل : إني لم أزل أرى قطرياً يصيب الرأي
حتى تزل منزله هذا ، فبان خطؤه ، أنقم بين المهلب وعبد ربه ، يغاديه هذا
القتال ويرأوحه هذا ؟ فتمى الكلام إلى قطري ، فقال : صدق ، تتحوا بنا

عن هذا الموضع ، فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربه رأيتم فيه ما تحبون ، فقال له الصلت بن مرة : يا أمير المؤمنين ! إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ، وأنشأ الصلت يقول :

قل للمُحِبِّينَ قَدْ قَرَّتْ عَيْنُكُمْ	بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كُنَّا أَتَمًّا عَلَى دِينٍ فَقِيرًا	طول الجدال وخطب الجد باللعب
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالًا ضَلَّ سَعِيمُ	عن الجدال وأغنام عن الخطب
إِنِّي لَأَهْوَنُكُمْ فِي الْأَرْضِ مُضْطَرَبًا	مالي سوى فرسي والرُحْمُ من نشب

ثم قال : أصبح المهلب يروج منّا ما كنا نطمع فيه منه ، فارتحل قطريّ ، وبلغ ذلك المهلب ، فقال له ريم بن عديّ بن أبي طحمة الجاشعيّ : إني لا آمنُ أن يكون قطريّ كلدنا بترك موضعه ، فاذهب فتعرف الخبر ، فمضى هريم في اثني عشر فارساً ، فلم ير في العسكر إلا عبداً وعلجاً ، فألها عن قطريّ وأصحابه ؟ فقالا : مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هريم إلى المهلب فأخبره ، فارتحل المهلب حتى نزل خندق قطريّ ، فجعل يقاتلهم أحياناً بالغداة ، وأحياناً بالعشيّ ، ففي ذلك يقول رجلٌ من سدوس ، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

لَيْتَ الْحَرَاثَ بِالْعِرَاقِ شَهِدْنَا	ورأيتنا بالسَّعْجِ ذِي الْأَجْبَالِ
فَنَكَحْنَا أَهْلَ الْجَزْءِ مِنْ فَرَسَاتِنَا	وَالضَّارِبِينَ جَمَاجِمَ الْأَبْطَالِ

* * *

ووجه المهلب يزيد إلى الحجاج بخبره أنه قد نزل منزل قطريّ ، وأنه مقيم على عبد ربه ، ويسأله أن يوجه في إثر قطريّ رجلاً جليداً في جيش ، فسرّ ذلك الحجاج سروراً أظهره ، ثم كتب إلى المهلب يستحثه مع عبيد بن موهب ، وفي الكتاب :

أما بعد ، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي ، فترجع بعذرِكَ ، وذلك أنك تَمَسُّكُ حتى تَبْرَأَ الجراح ، وتُنْسِي القتلى ، ومِجْمَ الناس ، ثم تُلْقِاهم

فتحتلّ منهم مثل ما يحتملون منك ، من وحشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنتَ تلقاهم بذلك الجدة لكان الداءُ قد حسم ، والقرنُ قد قصم ، ولعمري ما أنتَ والقومُ سواءٌ ؛ لأن من ورائك رجالاً وأمالك أموالاً ، وليس للقوم إلا ما معهم ولا يدركُ الوجيف بالذئبِ ، ولا الظفر بالتعنيرِ .

فقال المهلب لأصحابه : إن الله عزّ وجلّ قد أراحكم من أقرانٍ أربعةٍ : قطريّ بن الفجاءة ، وصالح بن خرقاء ، وعبيدة بن هلال ، وسعدٍ الطلائع ، وإنما بين أيديكم عبدٌ ربّه ، في خُشار من خُشار الشيطانِ ، تقتلونهم إن شاء الله .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحن ، فتصيهم الجراحُ ، ثم يتعاجزون كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه ، فيضحكُ بعضهم إلى بعضٍ ، فقال عُبيدُ بن موهب للمهلب : قد بانَ عُذرُكَ ، وأنا مُخبرُ الأميرِ ، فكتب المهلب إليه :

أما بعد ، فإني لم أعطِ رسلك على قول الحقّ أجراً ، ولم أحتجّ منهم مع المشاهدة إلى تلقينٍ ، ذكرتُ أني أجمُ القوم ، ولا بد من راحةٍ يستريح فيها الغالبُ ، ويحتال فيها المغلوب ، وذكرتُ أن في ذلك الجمام ما ينسى القتلى ، وتبرأ منه الجراح ، وهيات أن ينسى ما بيننا وبينهم ، تأبى ذلك قتلى لم تجنّ ، وقروح لم تتقرّف ، ونحن والقوم على حالةٍ ، وهم يرقبون منا حالاتٍ ، إن طمعوا حاربوا ، وإن ملوا وقفوا ، وإن يشوا انصرفوا ، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، وتنحزز إذا وقفوا ، ونطلبُ إذا هربوا ، فإن تركتني والرأيَ كان القرنُ مقصوماً ، والداءُ ياذن الله محسوماً ، وإن أعجلتني لم أطيعك ولم أعصِ ، وجعلتُ وجهي إلى بابيك ، وأنا أعوذ بالله من سخطِ الله ، ومقتِ الناسِ .

★ ★ ★

ولما اشتد الحصار على عبد ربّه قال لأصحابه : لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ، فإن المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صح توحيد عزّ بربه ، وقد أراحكم الله من غلظة قطريّ ، وعجلة صالح بن مخراقٍ ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلالٍ ، ووكلكم إلى بساتركم ، فالتقوا عدوكم بصبرٍ ونيةٍ ، وانتقلوا عن منزلكم هذا ، من قتل منكم قتل شهيداً ، ومن سلم من القتل فهو المحروم .

وقدم في هذا الوقت على المهلب عيّد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت الثقفى يستحثه بالقتال ، ومعه أمينان ، فقال له : خالفت الأمير ، وآثرت المدافعة والمطاولة ، فقال له المهلب : ما تركت جهداً ، فلما كان العشي خرج الأزارقة وقد حملوا حرمهم وأموالهم وخيف متاعهم لينتقلوا ، فقال المهلب لأصحابه : الزموا مصافكم ، وأشرعوا رماحكم ، ودعوم والذئاب ، فقال له عيّد : هذا لعمري أيسرُ عليك ، فقال للناس : ردوم عن وجهتهم ، وقال لبيته : تفرقوا في الناس ، وقال لعيّد بن أبي ربيعة : كن مع يزيد فخذهُ بالمحاربة أشد الأخذ ، وقال لأحد الأمينين : كن مع المغيرة ولا ترخص له في الفتور ، فاقتلوا قتلاً شديداً ، حتى عقرت الدواب ، وصرع الفرسان ، وقتل الرجال . فجعلت الحوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها والسوط والعلق الحيس أشد قتالٍ ، وسقط ومعهم رجل من مرادٍ من الحوارج ، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل ، وذلك مع المغرب ، والمرادي يقول :

الليلُ ليلٌ فيه ويلٌ وويلٌ وسال بالقوم الشراة السيلُ

• إن جاز للأعداء فينا قول •

فلما عظم الخطب فيه بعث المهلب إلى المغيرة : خلّ عن الرمح عليهم لعنهم الله ، فخلوا لهم عنه .

ثم مضت الحوارج حتى تزلوا على أربعة فراسخ من جيوفت ، ودخلها المهلب وأمر بجمع ما كان لهم فيها من المتاع ، وما خلفوه من رقيق ، وختم عليه هو

والتقي والأمينان ، ثم اتبعهم ، فإذا هم قد نزلوا على عين لا يشرب منها إلا قوي ، يأتي الرجل بالدلو قد شدها في طرف رمح فيستقي بها ، وهناك قرية فيها أهلها ، فغاداهم القتال ، وضم التقي إلى يزيد ، وأحد الأمينين إلى المغيرة ، واقتل القوم إلى نصف النهار ، فقال المهلب لأبي علقمة العبدي ، وكان شجاعاً عاتياً : أمدد بخيل اليمامة ، وقل لهم : فليعيرونا جماجم ساعة ، فقال له : إن جماجم ليست بفخار فتعار وليست أعناقهم كرادي فتبت . قال أبو الحسن الاخفش : تقول العرب لأعذاق النخل : كرادي ، وهو فارسي أعرب . وقال حبيب بن أوس : كر على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لي الأمير بغير علم تقدم حين جد به المراس
فما لي إن أطعك من حياة وما لي غير هذا الرأس ورأس

نصب « غير » لأنه استثناء مقدم ، وقد مضى تفسيره .

وقال لمعن بن المغيرة بن أبي صفرة : احمل ، فقال : لا ، إلا أن تزوجني أم مالك بنت المهلب ، ففعل ، فحمل على القوم فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

ليت من يشتري الغداة بمال هلكه اليوم عندنا قيرانا
نصل الكرم عند ذاك بطعن إن للموت عندنا ألوانا

ثم جال الناس جولة عند حملة حملها عليهم الحوارج ، فالتفت عند ذلك المهلب إلى المغيرة فقال : ما فعل الأمين الذي كان معك ؟ قال : قُتِلَ ، وكان التقي قد هرب ، وقال ليزيد : ما فعل عبيد بن أبي ربيعة ؟ قال : لم أراه منذ كانت الجولة ، فقال الأمين الآخر للمغيرة : أنت قتلت صاحي ، فلما كان العشي رجع التقي ، فقال رجل من بني عامر بن صعصعة :

مازلت بالتقي تخطب بيتنا وتغننا بوصية الحجاج
حتى إذا ما الموت أقبل زائراً ومما لنا صِرْفاً بغير مزاج
وليت بالتقي غير مناظر تنساب بين أحزّة وفجاج

ليست مقارعة الكهـاء لدى الوغى

شرب المدّامة في إناء زجاج

قوله « بين أحزة » هو جمع حزين ، وهو مثنى يتقاد من الأرض ويغلظ ،
و « الفجاج » : الطرق ، واحدها فج .

وقال المهلب للأمين الآخر : ينبغي أن تتوجه مع ابني حبيب في ألف رجل
حتى تبيتوا عسكرهم ، فقال : ماتريد أيا الأمير إلا أن تقتلني كما قتلت صاحبي !
قال : ذاك إليك ، وضحك المهلب ، ولم تكن للقوم خنادق ، فكان كل
حنراً من صاحبه ، غير أن الطعام والعدة مع المهلب ، وهم في زهاء ثلاثين
ألفاً ، فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجل معه رمح مكسور وقد خضبه
بالدماء ، وهو ينشد :

جزاني دواني ذو الحمار وصنعتي	إذا بات أطواء بني الاصغر
أخادعهم عنه ليغبق دُونهم	وأعلم غير الظن أني مُغاورُ
كأنني وأبدان السلاح عشية	يرُ بنا في بطن فيحان طائرُ

فدعاه المهلب فقال : أئيمي أنت ؟ قال : نعم ، قال أحفظلي ؟ قال : نعم ،
قال : أيربوعي ؟ قال : نعم ، قال : أثعلبي ؟ قال : نعم ، قال : أمن
آل نورية ؟ قال : نعم ، أنا من ولد مالك بن نورية ، وسبحان الله أيا الأمير !
أ يكون مثلي في عسكرك لاتعرفه ؟ ! قال : عرفتك بالشعر ! !

قوله : « ذو الحمار » يعني فرساً ، وكان ذو الحمار فرس مالك بن نورية ، قال
جرير يهجو الفرزدق :

يربوع فخرت وآل سعد	فلا مجدي بلغت ولا افتخاري
يربوع فوارس كل يوم	يواري شمسهم وهج الغبار
عتبة ، والأحيمر ، وابن عمرو	وعتاب ، وفارس ذي الحمار

قوله : « أطواء » يقال : رجل طوي البطن ، أي منطوي ، يخبر أنه كان
يؤثر فرسه على ولده ، فيشبعه وهم جياع ، وذلك قوله :

أخادعهم عنه ليغبق دونهم

و « الغبوق » : شرب آخر النهار ، وهذا شيء تقتخر به العرب ، قال
الأسعر الجعفي :

لكن قصيدة بيتنا بحفوة
نقفي بعيشة أهلها وثابة
باد جناجن صدرها ولها غنى
أوجر شعاً نهد المراكل والشوى

* * *

قال : فكثروا أياماً على غير خنادق ، يتحازسون ودوابهم مسرجة ، فلم
يزالوا على ذلك حتى ضعف الفريقان ، فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها عبد
ربه جمع أصحابه وقال : يا معشر المهاجرين ! إن قطرياً وعبيدة هربا طلب البقاء ،
ولا سبيل إليه ، فalcوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة فلا يغلبكم على الموت ،
فتلقوا الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفسهم في الدنيا يهبها
لكم في الآخرة .

فلما أصبحوا غادوا المهلب فقاتلوه قتالاً شديداً ، نسي به ما كان قبله ،
فقال رجل من الأزد من أصحاب المهلب : من يبايعني على الموت ؟ فبايعه
أربعون رجلاً من الأزد وغيرهم ، فضرع بعضهم ، وقتل بعض ، وجرح بعض ،
وقال عبد الله بن رزام الحارثي لأصحاب المهلب : احموا ، فقال المهلب : أعرابي
مجنون ! وكان من أهل نجران ، فجعل وحده ، فاخترق القوم حتى نجم من
ناحية أخرى ، ثم رجع ، ثم كرّ ثانية ، ففعل فعلته الأولى ، وتهايج الناس
فترجلت الحوارج وعقروا دوابهم ، فتأدام عمرو القنا ، ولم يترجل هو وأصحابه
من العرب ، وكانوا زهاء أربعمائة : موتوا على ظهور دوابهم ، ولا تعقروها ،
فقالوا : إننا إذا كنا على الدواب ذكرنا الفرار .

فاقتلوا ، ونادى المهلب بأصحابه : الأرض الأرض ، وقال لبنيه : تفرقوا
في الناس ليروا وجوهكم ، ونادى الحوارج : ألا إن العيال لمن غلب ، فصبر

بنو المهلب ، وصبر يزيد بين يدي آية ، وقاتل قتالاً شديداً أبلى فيه ، فقال له
أبوه : يا بني إني أرى موطناً لا ينجو فيه إلا من صبر ، وما مرّ بي يومٌ مثل
هذا منذ مارست الحروب .

وكسرت الحوارج أجفان سيوفها ، وتجاوزوا ، فأجلت جولتهم عن عبد ربه
مقتولاً ، فهرب عمرو القنا وأصحابه ، واستأمن قومٌ ، وأجلت الحرب عن أربعة
آلاف قتيلٍ ، وجرحى كثيرٍ من الحوارج ، فأمر المهلبُ بأن يدفع كلَّ جريحٍ
إلى عشيرته ، وظفر بعسكرهم فعوى مافيه ، ثم انصرف إلى جيوفت ، فقال :
الحمد لله الذي ردنا إلى الحفض والدعة ، فما كان عيشنا بعيشٍ ، ثم نظر إلى قومٍ
في عسكره لم يعرفهم ، فقال : ما أشدَّ عادة السلاح ! هاتولوني درعي ، فلبسها ،
ثم قال : خذوا هؤلاء ، فلما صيرَ بهم إليه قال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن قومٌ
جئنا لنطلب غرتك لنفتك بك ، فأمر بهم فقتلوا .

* * *

قال أبو العباس : ووجه المهلب كعب بن معدان الأشقري ، ومرة بن تليدٍ
الأزدي من أزد شعوة ، فوفدا على الحجاج ، فلما طلعا عليه تقدم كعبٌ فأنشده :
ياحفصَ إني عدائي عنكم السفر وقد سهرت فأردى نومي السهر
فقال له الحجاج : أشاعرٌ أم خطيبٌ ؟ قال : كلاهما ، ثم أنشده القصيدة ،
ثم أقبل عليه فقال له : أخبرني عن بني المهلب ؟ قال : المغيرةُ فارسهم وسيدهم ،
وكفى يزيد فارساً شجاعاً ، وجوادهم ومخيم قبيصة ، ولا يستحيي الشجاع أن
يفرَّ من مدركٍ ، وعبد الملك سمٌّ نافعٌ ، وحبيبٌ موتٌ زعافٌ ، ومحمدٌ ليثٌ
غابٍ ، وكفالك بالفضل نجدةٌ ، قال : فكيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم
بخبير ، قد أدركوا ماأملوا ، وأمنوا ماخافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب
فيكم ؟ قال : كانوا حمة السرح نهراً ، فإذا ألبوا ففرسان اليات ، قال :
فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالخلقة المفرغة ، لا يدرى أين طرفها ، قال :
فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخذنا عفونا ، وإذا أخذنا عفونا

منهم ، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، كيف أفلكم قطري ؟ قال : كدناه ببعض ما كدنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحد عندنا أثر من الفل ، قال : فكيف كان لكم المهرب وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وله منا بر الولد ، قال : فكيف اغتباط الناس ؟ قال : فشا فيهم الأمن ، وشملهم النفل . قال : أكنت أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : فقال : هكذا تكون والله الرجال . المهرب كان أعلم بك حيث وجهك . وكان كتاب المهرب إلى الحجاج :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ماسوا ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد ؛ فقد كان من أمرنا ما قد بلغك ، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين ، يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم ، فقد كان علن أمرهم حتى ارتفعت له الفتاة ، ونوم به الرضيع ، فانتهزت منهم الفرصة في وقت إمكانها ، وأدريت السواد من السواد ، حتى تعارفت الوجوه ، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أما بعد ؛ فإن الله عز وجل قد فعل بالمسلمين خيراً ، وأراحهم من حد الجهاد ، وكنت أعلم بما قبلك ، والحمد لله رب العالمين ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فيهم ، وتقل الناس على قدر بلائهم ، وفضل من رأيت تفضيله ، وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت ، وول الخيل شهماً من ولدك ، ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم علي ، وعجل القدوم ، إن شاء الله . فولى المهرب ابنه يزيد كرمان . وقال له : يا بني ! إنك اليوم لست كما

كنت ، إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ، ولن تحتل إلا على ما احتل عليه أبوك ، فأحسن إلى من معك ، وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إلى وتقض على قومك إن شاء الله .

وقدم المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه ، وأظهر أكرامه وبره ، وقال : يا أهل العراق ! أنتم عبيد المهلب ، ثم قال : أنت والله كما قال لقيط الأبادي :

وقلدوا أمركم الله درؤكم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعاً
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه	هم يكاد حشاه يقصم الضلعاً
لامترقأن رخاء العيش ساعده	ولا إذا عض مكروه به خشعاً
ما زال يجلب هذا الدهر أسطره	يكون متبعاً طوراً ومتبعاً
حتى استمرت على شؤر مريته	مستحكم الرأي لاقحماً ولا ضرعاً

فقام إليه رجل ، فقال : أصلح الله الأمير ، والله لكأنني أسمع الساعة فطرياً وهو يقول : المهلب كما قال لقيط الأبادي ، ثم أنشد هذا الشعر ، فسر الحجاج حتى امتلأ سروراً . قوله « نفل » أي أقسم بينهم ، والنفل : العطيّة التي تقض ، كذا كان الأصل ، وإنما تقض الله عز وجل بالغنائم على عباده ، قال ليذ :

إن تقوى ربنا خير نفل ويأذن الله ريث وعجل

وقال جل جلاله : (يسئلونك عن الأنفال) ويقال : نفلتك كذا وكذا أي : أعطيتك ، ثم صار النفل لازماً واجباً . وقول الأبادي « رحب الذراع » فالرحب : الواسع ، وإنما هذا مثل ، يريد : واسع الصدر ، متباعد ما بين المنكبين والذراعين ، وليس المعنى على تباعد الخلق ، ولكن على سهولة الأمر عليه ، قال الشاعر :

رحب الذراع بالتي لا تشينه وإن قليت العوراء ضاق بها ذرعاً

وكذلك قوله جل وعز : (يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وقوله « مضطلعاً »

الما هو « مفتعل » من الضليع ، وهو الشديد ، يريد أنه قوي على أمر الحرب ، مستقل بها . وقوله : « يكون متبعاً طوراً ومتبعاً » أي قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قد ألتنا وإيل علينا ، أي قد أصلحنا أمور الناس ، وأصلحت أمورنا . وقوله : « على شزر مريوته » فهذا مثل ، يقال شزرت الجبل : إذا كررت قتله بعد استحكامه راجعاً عليه ، والمريوة : الجبل . و « الضرع » : الصغير الضعيف . و « القحم » : آخر سن الشيخ ، قال العجاج :

رأين قحماً شاباً واقلحها طال عليه الدهر فاسلها

والمقلح مثل القحم ، وهو الجاف ، ويقال للصبي ملقحم : إذا كان مهيئاً للغذاء ، أو ابن هريمين ، ويقال رجلاً إنقحل وامرأة إنقحلة : إذا أسن حتى يبس ، والمسلم الضامر ، قال الشاعر :

لما رأني خلقاً إنقحلاً .

ويقال في معنى : قحم قحراً ، ويقال بعير قحارية ، في هذا المعنى . وقوله « لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم » فريث وعوض مما يضاف إلى الأفعال ، وتأويله أنه لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه الهم ، فعناه مقدار ذلك ، ومما يضاف إلى الأفعال أسماء الزمان ، كقوله عز ذكره : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) فاسماء الزمان كلها تضاف إلى الفعل ، نحو قولك : آتيك يوم يخرج زيد ، وجئتك يوم قام عبد الله ، وما كان منها في معنى الماضي جاز أن يضاف إلى الابتداء والخبر ، فتقول : جئتك يوم زيد أمير ، ولا يجوز ذلك في المستقبل ، وذلك لأن الماضي في معنى إذ ، وأنت تقول : جئتك إذ زيد أمير ، والمستقبل في معنى إذا ، فلا يجوز أن تقول : أجيتك إذا زيد أمير ، فلذلك لا يجوز أجيتك يوم زيد أمير . فاما الأفعال في إذا وإذ فهي بمنزلة واحدة ، تقول : جئتك إذ قام زيد ، وأجيتك إذا قام زيد ، فهذا واضح بين . ومما يضاف إلى الفعل « ذو » في قولك افعل ذاك بذى

تسلم ، وافعلاهُ بذِي تسلمانِ ، معناه : بالذِي يُسَلِّمُكُنَا ، ومن ذلك آيةٌ
في قوله :

بآيةٍ تقدِمون الخيلَ شعناً كأنّ على سنانِكها مُدّاما

والنحو يتصل ويكثر ، وإنما تركنا الاستقصاء لأنه موضع اختصار . فقال
المهلب : إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولا أحد ، ولكن دمع الحقّ الباطل ،
وقهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للتقوى ، وكان ما كرهناه من المطاوعة خيراً مما
أحببناه من العجلة . فقال له الحجاج : صدقت ، اذكر لي القوم الذين أبلوا
وصف لي بلاءهم . فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج ، فقال لهم المهلب : ما ذكر
الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله . ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم
في البلاء وتفاضلهم في الغناء ، وقدمَ بنو المغيرة ويزيد ومدركاً وحيياً وقيصة
والمفضل وعبد الملك ومحمداً ، وقال : إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدّمته
عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم
بهم مني وإن حضرتَ وغبتُ ، إنهم لسيوف من سيوف الله . ثم ذكر معن بن
المغيرة بن أبي صفرة والرقاد وأشباهها ، فقال الحجاج : أين الرقاد ؟ فدخل
رجلٌ طويل أجناً ، فقال المهلب : هذا فارسُ العرب ، فقال الرقاد : أيها
الأمير ! إني كنتُ أقاتل مع غير المهلب فكنتُ كِبعض الناس ، فلما صرتُ
مع من يلزمني الصبر ويجعلني إسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء ، صرتُ أنا
وأصحابي فرساناً ، فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلاءهم ، وزاد ولدا المهلب
ألفين ، وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك .

قال يزيد بن حبناء من الأزارقة :

دعي اللوم إن العيش ليس بدائم	ولا تعجلي باللوم يا أم عاصم !
فإذ عجلتُ منك الملامة فاسمعي	مقالة معني بحقك عالم
ولا تعذلي في الهدية إنما	تكون الهدايا من فضول المغانم
فليس يهدى من يكون نهاره	جلاداً ويمسي إليه غير قائم

يريد ثواب الله يوماً بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم
 أبيت وسربالي دلاص حصينة وميغفرها والسيف فوق الحيازم
 حلفت برب الواقفين عشيّة لدى عرفات حلقة غير آثم
 لقد كان في القوم الذين لقيتهم بسبور شغل عن يزور اللطائم
 توقد في أيديهم زاعبيّة ومرهقة تقري شؤن الجماجم

قوله « من يكون نهاره جلاداً ويُمسي إليه غير نائم » يريد : يُمسي هو
 في إليه ويُكون هو في نهاره ، ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السّعة ،
 وفي القرآن (بل مكر الليل والنهار) والمعنى : بل مكرّم في الليل والنهار ،
 وقال رجل من أهل البحرين من الموص :
 أمّا النهار فقي قدير وسلسلة والليل في جوف منحوت من السّاج

وقال آخر :

لقد لمّتنا يأم غيلان في السّرى ومث وما ليل المطي بنائم
 رلو قال : « من يكون نهاره جلاداً ويُمسي إليه غير نائم » لكان جيداً ،
 وذاك أنه أراد : من يكون نهاره يجالّد جلاداً ، كما تقول : إنما أنت سيّراً ،
 وإما أنت ضرباً ، تريد : تسير سيّراً ، وتضرب ضرباً ، فاضمر لعلم المخاطب أنه
 لا يكون هو سيّراً ، ولو رفعه على أن يجعل الجلاد في موضع المجالّد ، على
 قوله : أنت سير ، أي أنت سائر ، كما قالت النساء :
 . فإنما هي إقبال وإدبار .

وفي القرآن (قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً) أي غائراً ، وقد مضى
 تفسير هذا بأكثر من هذا الشرح . ولو قال « ويُمسي إليه غير نائم » لجاز ،
 بصير اسمه في « يُمسي » ويجعل « إليه » ابتداءً ، و « غير نائم » خبره على
 السّعة التي ذكرنا . وقوله « غموس » يريد واسعةً محيطّة . و « العنبري » بن سالم ،
 رجل منهم ، كان يقال له الأشدق . و « اللطائم » واحدتها « لطيمة » وهي
 الإبل التي تحمل البرّ والعطر . وقوله : « توقد في أيديهم زاعبيّة » يعني

الرّماح ، والتوقّدُ للأسنّة ، والزّاعيةُ منسوبةٌ إلى زاعبٍ ، وهو رجل من
الخزرج كان يعمل الرماح ، و «تقري» : تقدُّ ، يقال : فرى : إذا قطع ،
وأفرى : إذا أصلح .

وقال حبيب بن عوفٍ من قواد المهلب :

أبا سعيدٍ جزاك الله صالحاً فقد كفيت ولم تعنف على أحد !
داويت بالحلم أهل الجبل فانتقموا وكنت كالوالد الحاني على الولد

وقال عبيدة بن هلالٍ في هربهم مع قطريّ :

ما زالت الأقدار حتى قدفتني بقومسَ بين الفرّخان وصول

ويروى أن قاضي قطريّ وهو رجلٌ من بني عبد القيس سمع قول عبيدة

ابن هلال :

علا فوق عرشٍ فوق سبع ودونه سمامتري الأرواح من دونها تجري

فقال له العبدي : كفرت إلا أن تأتي بمخرجٍ ، قال : نعم ، روح المؤمن

تخرج إلى السماء ، قال : صدقت . وقال يذكر رجلاً منهم :

يهوي وترفعه الرّماح كأنه شلّو تشبّ في مخالب ضارٍ

فتوى صريعاً والرماح تتوشه إن الشّراء قصيرة الأعمارِ

« تتوشه » : تأخذه وتتناوله ، قال الله عز وجل : (وأنى لهم التناوشُ من

مكانٍ بعيدٍ) أي التناول . ومثل بيته هذا قول حبيب الطائي :

فيم الشّهانةُ إعلاناً بأسدٍ وغى أفتام الصبر إذا أبقاكم الجزعُ

وقال أيضاً في شيءٍ بهذا المعنى :

إن ينتحل حدثانُ الموت أنفسم ويسلم الناس بين الحوض والعطن

فلما ليس عجيباً أن أعذبه يقنى ويمتدّ عمر الآجن الأسين

وقال أيضاً :

عليك سلام الله وقفاً فإني رأيت الكريم الحر ليس له عمرٌ

وقال القاسم بن عيسى :

أحبك يا جنان فانت متي مكان الروح من بدن الجبان
ولو أني أقول : مكان روحي لحقت عليك بادرة الزمان
لإقدامي إذا ما الحرب جاشت وهاب حماها حرّ الطعان

وقال معاوية بن أبي سفيان في خلاف هذا المعنى :

أكن الجبان يرى أنه يدافع عنه الفرار الأجل ؟
فقد تدرك الحادثات الجبان ويسلم منها الشجاع البطل
رجع الحديث : وقال رجل من عبد القيس من أصحاب المهلب :

سائل بنا عمرو القنا وجنوده وأبا نعامه سيد الكفار

أبو نعامه : قطري . وقال المغيرة بن حنابلة الحنظلي من أصحاب المهلب :

إني امرؤ كفتي ربي وأكرمني عن الأمور التي في رعيها وخم
إنما أنا إنسان أعيش كما عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
معاقتي عن قفول الجند إذ قفلوا عني بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولاً ما تجهمني إذن الأمير ولا الكتاب إنزفوا
إن المهلب إن أشق رؤيته أو أمتدحه فإن الناس قد علوا
أن الأريب الذي ترجى نوافله والمستعان الذي تجلى به الظلم
القائل الفاعل الميمون طائره أبو سعيد إذا ما عدت النعم
أزمان أزمان إذ عض الحديد بهم واذ تمي رجال أنهم هزموا

قال أبو العباس : وهذا الكتاب لم نبتدئه لتصل فيه أخبار الخوارج ،

ولكن ربما اتصل شيء بشيء ، والحديث ذو شعب ، ويقترح المقترح ما يفسخ
به عزم صاحب الكتاب ، ويصده عن سته ، ويزيده عن طريقه ، ونحن راجعون
إن شاء الله إلى ما ابتدأنا له هذا الكتاب ، فإن مر من أخبار الخوارج شيء
مر كما يمر غيره ، ولو نسقناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا
خبر نجدة وأبي فديك وعمارة الرجل الطويل وشيب ، ولكان يكون الكتاب
لخوارج خلاصاً .

الفهرس

٥	بيعة الخوارج لعبد الله الراسي وتكرهه
٦	وقوع واصل بن عطاء في قبضة الخوارج وحيلته
٦	توجيه سيدنا علي عبد الله بن عباس للخوارج لمناقشتهم في الخروج على أمير المؤمنين علي
٧	استفتاء اعرابي عمر بن الخطاب فيمن أصاب ظيماً وهو محرم
٧	قول قطري بن الفجاءة لأبي خالد القناني ورده عليه
٨	حديث عمران بن حطان رأس القعد من الصفرية
١٦	أول من حكم من الخوارج
١٦	أول سيف مل من سيوف الخوارج
١٧	سبب تسمية الخوارج الحرورية
١٨	كلمة الصلتان العبدى
١٩	خطاب الراعى لعبد الملك
٢٠	محاربة المهلب للأزارقة وقول شاعر الأزارقة في ذلك
٢٢	حديث الرجل الأسود مع النبي ﷺ حين قسمة غنائم خيبر
٢٤	هجاء بشار بن برد لواصل بن عطاء
٢٥	لثغة واصل بن عطاء وقدرته على تجنبها
٢٦	محاربة علي للخوارج وهرب قسم منهم إلى مكة
٢٧	اتفاق ثلاثة من الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو

٣١	رثاء أبي زيد الطائي علي بن أبي طالب
٣١	رثاء الكميت علي بن أبي طالب
٣٢	قول كثير في حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية
٣٤	وقف علي بن أبي طالب أمواله
٣٥	كتاب معاوية إلى عامله مروان بن الحكم بشأن خطبة أم كلثوم
٣٥	حديث أمير المؤمنين علي مع الخوارج في أول خروجهم عليه
٣٧	حوار عبد الله بن خباب مع الخوارج
٣٨	سمر غيلان بن خرشة الضبي عند زياد وحديثه عن الخوارج
٣٨	معارضة مرداس لزياد وهو يخطب
٣٩	من يرى رأي الخوارج من الفقهاء ومن لا يراه
٣٩	كلمة (لا أبالك) وفيه تستعملها العرب
٤٢	وصف النبي ﷺ الخوارج
٤٣	اتجاج نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس
٤٤	هجاء جرير لآل المهلب بن أبي صفرة
٤٧	تضجر ابن عباس من ابن الأزرق
٤٩	حوار عبد الملك مع أحد الخوارج
٥٠	وفادة الكتابي على معاوية
٥١	حديث عبد الملك مع الكتابي الذي أسلم
٥١	حديث ابن جعدبة للمنصور
٥٢	أهل النخيلة وعلي بن أبي طالب
٥٤	أول من خرج على معاوية بعد قتل علي
٥٥	حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ
٥٦	وصية سيدنا علي لأبنائه بعد طعنه
٥٧	خروج قريب الأزدي وزحاف الطائي على زياد

معاملة زياد لمن خرج من النساء	٥٨
قصة البلجاء الخارجية	٥٩
أخبار مرداس الخارجي	٦٠
مدح عيسى بن فائق الخوارج	٦٣
رثاء عمران بن حطان مرداساً	٦٥
مقتل عباد بن أخضر المازني	٦٦
الفرزدق يذكر أخذ ثار عباد	٦٦
تشديد عبد الله بن زياد على الخوارج	٦٨
سياسة زياد مع الخوارج	٦٨
الرثمين	٦٩
المختار بن عبد الله الثقفي	٧٠
باب اللام التي للاستغاثة والتي للاضافة	٧٥
عود إلى أخبار الخوارج	٧٧
عبد الله بن زياد وخالد بن عباد السدوسي	٧٧
افتراق الخوارج	٧٨
حوار الأزارقة مع ابن الزبير	٨٠
خروج نافع بن الأزرق إلى الأهواز	٨٣
انقصال نجدة بن عامر عن نافع بن الأزرق وخروجه إلى اليمامة	٨٥
كتاب نجدة بن عامر إلى نافع	٨٥
جواب نافع إلى نجدة	٨٦
كتاب نافع إلى عبد الله بن الزبير	٨٧
كتاب نافع إلى من بالبصرة من المحكمة	٨٨
مقتل نافع بن الأزرق في وقعة دولاب	٩٠
قول قطري في يوم دولاب	٩٢
باب فعل	٩٤

- ٩٥ باب النسب إلى المضاف
- ٩٧ عود إلى أخبار الحوارج
- ٩٧ الأزارقة وولادة ابن الزبير في البصرة
- ٩٩ مشاور أهل البصرة وتولية المهلب بن أبي صفرة لقتال الحوارج وأخبره معهم
- ١٠٢ كتاب المهلب إلى الوالي يبشره بالنصر وجواب الوالي عليه
- ١٠٣ خطبة المهلب في أصحابه يحثهم على قتال الحوارج
- ١٠٤ هجاء رجل من بني تميم للمهلب
- ١٠٦ معنى الضمار وأصل كلمة كائن
- ١٠٧ يوم سلى وسليرى
- ١١١ كتاب المهلب إلى الوالي الحارث بن عبد الله وجواب الوالي عليه
- ١١١ مبايعة الحوارج الزبير بن علي
- ١١٤ تولية مصعب بن الزبير على البصرة واستقدامه المهلب
- ١١٥ تولية عمر بن عبيد الله مكان المهلب بقتال الحوارج
- ١٢٠ حصار الحوارج لعتاب بن ورقاء وانتصاره عليهم
- ١٢٣ مبايعة الحوارج قطري بن الفجاءة بعد مقتل الزبير بن علي
- ١٢٤ كتاب عبد الملك إلى المهلب يوليه
- ١٢٥ عزل خالد بن عبيد الله المهلب ومحاربته الحوارج في الأهواز
- ١٢٦ مأثر فيروز حصين
- ١٢٧ تولية خالد أخاه عبد العزيز. قتال الأزارقة
- ١٣٢ كتاب خالد إلى عبد الملك يعذر أخيه عبد العزيز وجواب عبد الملك عليه
- ١٣٣ تولية بشر بن مروان مكان خالد بن عبيد الله
- ١٣٣ كتاب الخليفة إلى أخيه بشر يأمره بتولية المهلب. قتال الأزارقة وكره بشر لذلك
- ١٣٤ تأكيد الخليفة تولية المهلب قتال الحوارج
- ١٣٥ موت بشر واختلاف الكلمة على ابن مخنف

- ١٣٦ تولية الحجاج أمر العراق
١٣٧ رسائل الحجاج الى المهلب وردوده عليها
١٤١ توجيه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب
١٤٤ إرسال الحجاج الجراح بن عبد الله الى المهلب يستبطنه
١٤٥ كتاب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي
١٤٦ وقوع الخلاف بين عتاب والمهلب بسبب أرزاق الجند وسعي المغيرة بينها بالصلح
١٤٧ دعاء المهلب وقوة حيلته في ايقاع الخلاف بين الخوارج
١٥٠ كتاب الحجاج يستحث المهلب
١٥٢ كتاب المهلب إلى الحجاج
١٥٨ ما قاله عبد ربه لأصحابه عند اشتداد الحصار
١٦٢ رسولا المهلب الى الحجاج
١٦٣ كتاب المهلب إلى الحجاج بالنصر ورد الحجاج عليه
١٦٣ تولية المهلب ابنه يزيد على كرمان وقدمه على الحجاج
١٦٤ الحجاج يكرم المهلب ويثني عليه
١٦٦ الحجاج يطلب من المهلب أن يصف له بلاء أصحابه
١٦٦ قول يزيد بن حبناء من الازارقة وتفسير ماورد في ذلك من الغريب
١٦٩ قول المغيرة بن حبناء الحنظلي من أصحاب المهلب بمدحه
١٧١ الفهرس